

معهد مولاي الحسن

عبد الله كنون

واجبة الفكر

طوبوان 1367 = 1948

عبد الله كنون

واحدة الفكر

1367 :: 1948

المطبعة المهدية - محمد الطريس 19 تطوان (المغرب)

واحة الفكر

نفر من صخب الحياة وضواؤها الى صمت الطبيعة الحكيم
وسكوتها البليغ .

ونفر من جلبة النهار الى هدأة الليل ومن ضغط الجو
في المدينة الى الهواء الطلق في القرية .

ونفر من حمارة القيظ في الصحراء القاسية الى حيث الظل
الظليل والهواء العليل في الواحة الحنون .

فاذا أجهدنا الفكر وأضجرنا النظر وسطا الخمود على
نشاطنا العقلي فأننا نفر الى هذا الادب فنحس الجمام والمتعة والقوة
انه وادي عبقر ، نلتقي فيه بظلال انفسنا أشخاصا ماثلة
امامنا نتحدث اليها ونفهم عنها ، فكم تكشف لنا من اسرار يعجز
عن ادراكها تفكيرنا المقيد بقواعد المنطق وكم تظهرنا على
عوالم سحرية تتلمح أثارة منها في عالم الرؤيا العجيب .

في فجاج ذلك الوادي الفسيح نسمع نغما موسيقيا عذبا ،
ونشاهد أهدأ ربا نيا تنتصب فيه تماثيل من الحقائق العليا ،
ونقيم صلاة الفكر فيخشع الضمير وتحلق الروح في الاجواء غير
المنظورة حيث ترود مستقر الخلود في عالم الطهر والقداسة .
ولانها رحلة على مثل جناح البراق فان اولها هو منتهاها
وهكذا تستمر الريادة ويستمر معها السمو ولا هبوط من المحل
الارفع الذي تحدث عنه الشيخ الرئيس !

وفي الشعب الشجر من واجتنا هذه، تمثل مواكب
الامل وأطياف الذكرى رائحة غادية ولحركاتها هريج كالأحان
الملائكة ولا تفاتها بريق كضحات العذاري فكلما تطلعننا الى
جمالها الريان بارواحن الظامئة هبت علينا نسبات معشة من
عطره الفواح فجذبنا اليه فلا نشعر الا ونحب صرعى تحت
إعوا بري!

هذه هواية تضمحل أمامها جميع هواياتنا المختلفة، ولا
ندري اذالك من قوة تأثيرها فقط ام لانها هي هوايتنا الحقيقية؟
وكما يتبارى الندامى في حضرة الشراب فيستخثون الكؤوس
كلما زادت نشوتهم فان الاديب يتطلع من حوض المعرفة وتقيض
جامه حتى تسيل وهو مع ذلك يستسقى كالهامة، فان لم يكن
كذلك فهو دعى مدع في هوى ليلى ووصلها،
واذت فهل من يقرأ للمشاركة الادبية ويتأدب للترف
العقلي يكون اديباً؟

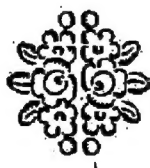
لا يا سيدي؛ فان الادب رسالة أسمى من هذه الارضيات
واعمق من هذه السطحيات!

اننا ما قررنا اليه الا لاننا نعتده طب القلوب وبلسم
الارواح فالعالم يستريح اليه من جهود تجاربه المضنية، والفيلسوف
يصبح أوهامه فيه، والرياضي والطبيب كلاهما يروضان به
أعصابهما الثائرة وأفكارهما المضطربة!

إن دعوته لتدخل الى اكواخ الفقراء وقصور الاغنياء فتملاً

نفوس أولئك بالرضى والتسليم وتفتح قلوب هؤلاء للعطف
والمرحمة. وانها لتستحيل الى يد رفيقة تربت على اكتاف
الجزائري فتلاشى احزانهم وتشعرهم بالغبطة والسرور وتمسح
دموع الثكالى فيجدين لها برداً وسلاماً وتتنزل السكينة على
قلوبهن !

نحن نبخس الادب حقه اذا اعتبرناه ملهاة نقتل بها الوقت،
وضرباً من ضروب الكمال في حياتنا العقلية على حين انه
روح الثقافة وجوهر المعرفة. واذا كنا نستجم به النفس من
عناء الفكر فلان ضرورات الحياة من سياسية واجتماعية وغيرها
لا تكاد تسلمنا اليه الا على حالة من الاجهاد لا توصف.
فهنيئاً لمن صافهم الزمن فتمتعوا بجو الواحة الرائق ولم
يكابدوا سموماً الصحراء اللاذع



المسلمون والنبي

بعض الباحثين شغفوا بالاغراب ليقال عنهم انهم مجددون حتى اذا لم يواتهم الموضوع الغريب عمدوا الى الشيء يكون من الشهرة بالمكاف الذي قالت فيه الخنساء «كانه علم في رأسه نار» فألبسوه حلة الغرابة بالرغم عنه وفرضوا على الناس فرضا ان يعتقدوا انه شيء غريب يعني جديد مبتكر على غير مثال سابق.

من هؤلاء الدكتور زكي مبارك الذي زعم ان الرسول صلى الله عليه وسلم لا زال لم يدرس من ناحيته الانسانية وان المسلمين لم ينظروا اليه الا على اعتبار انه رسول مؤيد من الله في القول والفعل لا ياتي شيئا ولا يذره الا بوحي من السماء فهو بذلك مجرد او كالمجرد من صفة الانسانية في جميع افعاله وتصرفاته(1).

ما ادري هل يجد الدكتور ام يهزل؟ فاما اذا كان يهزل فان هزله غير المفهوم كان اخرى به ان يتناول موضوعا آخر غير موضوع الرسول، وهو الذي يريد ان يكون مومنا تقيا لا يمنعه من اعلان تقواه الاتجا فيه عن الرياء وما اليه. واما ان

(1) انظر مقاله «التواحي الانسانية في الرسول» بالعدد الممتاز من مجلة «الرسالة» المصرية رقم 297 وقد نشر هذا الرد بعدد ممتاز من جريدة «المغرب».

كان يجد فيظهر انه نسي مراجع السيرة النبوية من القرآن
والحديث وغيرهما وبني حكمه على بعض ما يرد في الاشعار
الصوفية والقصص المولدية ونحوها. ونقول نسي فقط ولا نقول
انه يجهل تلك المراجع لاننا نعلم انه قد درسها او بعضها منها في الازهر
لما كان «الشيخ» زكي مبارك قبل ان ينال شرف الدكتوراه
التي اركبته هذا المركب الصعب.

«لقد جاءكم رسول من انفسكم، هذه الآية وحدها كانت
ولا زالت تمنع المسلمين من اعتقاد شيء مما توهمه الدكتور
في الرسول ومع ان بعضهم قراها بفتح الفاء فان احدا لم
يفهم من تلك القراءة الا ان الرسول هو من انفس العرب اي
اشرفهم حسبا ونسبا.

وفي الآية الاخرى «وقالوا لن نومن لك حتى تفجر لنا
من الارض ينبوعا او تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار
خلالها تفجيراً او تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا او تأتي
بالله والملائكة قبلاً او يكون لك بيت من زخرف او ترقي في
السماء ولن نومن لرقبك حتى تنزل علينا كتاباً نقرأه قل
سبحان ربي هل كنت الا بشرا رسولا» فلم يقتصر على اثبات
عجزه عن الاتيان بهذه الامور التي طلبوها منه بل اكد ذلك
بالتعجب من طلبهم منه وهو بشر مثلهم ما لا يطيق، والمسامون
الذين قرأوا ويقرؤون هذه الآيات التي تنادي بانسانية الرسول
وكونه بشرا من الخلق لا ينسوف هذه الحقيقة الا اذا نسوا

آيات الله ولا يعتقدون خلافاً في حقها إلا إذا لم يقولوا مسلمين
فيكف يمكن أن تقوم دراستهم له على غير هذا الأساس أو
ينظروا إليه نظرة مجردة عن هذا المعنى وهو مبدأ إيمانهم به
وغاية علمهم فيه :

فبلغ العلم فيه أنه بشر وأنه خير خلق الله كلهم
«عفا الله عنك لم اذنت لهم» هذا ضرب آخر من الخطاب
الكريم الذي يعرف به المسلمون أن الرسول هو انسان مثلهم
يخطئ ويصيب وليس كما ينسب لهم الدكتور أنه لا يعمل
عملاً إلا بأذن من الله ، إذ لو كان كذلك لما عاتبه الله عز
وجل ولو بهذا الأسلوب اللطيف الذي أخبره فيه بالصفح قبل
أن يخبره بالعتب .

ومثله أيضاً قوله تعالى «ما كان لنبي أن يكون له اسرى
حتى يشن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة
والله عزيز حكيم لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما اخذتم
عذاب عظيم» .

واعظم من هذا وذلك قوله تعالى في حق «عيس وتولى أن
جاه الأعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى
أما من استغنى فانت له تصدى وما عليك ألا يزكى وأما من
جاء يسعى وهو يخشى فانت عنه تلهى» فهذه الآية التي تثبت
أكثر من غيرها بشرية الرسول وتقرر طبيعته الإنسانية ابلغ
تقرير ، لن يغفل المسلمون عنها أصلاً سيما وهي تلفت نظرهم

الى ان تصرفا عاديا مثل هذا قد استحق عليه الرسول ذلك العتاب المر وان كان هو على ما يرى بعضهم انما فعله تاليفا لذلك الغنى واملا بدخوله في الاسلام.

واخيرا الم يقل الرسول في حديثه « لا تطروني كما اطرت النصارى عيسى ولكن قولوا عبد الله ورسوله » وقال « انما انا عبد آكل كما ياكل العبد واجلس كما يجلس العبد » وقال « انما انا بشر وانكم تختصمون الي فلعل بعضكم ان يكون ألحن بحجته من بعض فاقضى له على نحو ما اسمع » وقال « انما انا بشر مثلكم وان الظن يخطي » ويصيب ولكن ما قلت لكم قال الله فلن اكذب على الله » وقال « والله وانا رسول الله ما ادري ما يفعل به او بي » وقال « يا عائشة ما لي وللدنيا اخواني من اولى العزم من الرسل صبروا على ما هو اشد من هذا فمضوا على حالهم فقدموا على ربهم فاکرم مايعهم واجزل ثوابهم فاجدني استحيى ان ترفهت في معيشتي ان يقصر بي غذا دونهم وما من شيء هو احب الي من اللحوق باخواني واخلائي » فهو ينهي عن اطرائه كاطرائ النصارى لعيسى ويتواضع حتى يتشبه بالعبد ويقول انه لا اطلاع له على الباطن وانما يقضي بحسب الظاهر وان ظنه يخطي ويصيب وانه جهل عاقبة الامر والجزأ ويعمل لادراك غايات النبيين من قبله فكيف ترى المسلمين الذين تناقلوا عنه هذه الاقوال وخلافها مما لم نشأ ان نكثر به يغفلون عنها ويتناسونها فلا يعتبرون

فيه الجانب النبوة والرسالة. ويلغون صفة الانسانية والبشرية؟ ومتى كان المسلمون يعملون اقوال نبهم ويمرون بها هكذا من الكرام وهم قد كتبوا عليها من الشروح والتفاسير واستنبطوا منها من الاحكام والحكم ما يبهر العقول ويحير الالباب؟ وبناءً على ذلك يقرر المسلمون ان النبي «انسان» اوحى اليه بشرع، فجعلوا جنس الجد انسانا، ثم عللوا ما يصيب النبي من المصائب الدنيوية وما يلحقه من اذى شرار الخلق بان حكمته تسلية المؤمنين وتاسيهم به في مثل تلك الاحوال اذ انهم بشر مثله في الانسانية وان لم يبلغوا درجته في الاختصاص فاحرى ان يصيبهم مثل ما اصابه من الاذى والضرر فيصبروا ويحتسبوا. واذاً فهل فرق ما بين عامة البشر والرسول عند المسلمين الا ما اشار له في الآية الكريمة «قل انما انا بشر مثلكم يوحى الي» بل لقد اشار الرسول الى مزية البشرية المجردة في بعض الاحوال بقوله: «انتم اعلم بامر دنياكم» فمن اين يتطرق الخطأ للمسلمين مع هذه الصراحة العظمى؟

وهل اناك نبياً ان الرسول لم يهنأ باتصافه بصفة النبوة وحده ولم يعجبه اختصاصه بهذه الفضيلة دون سائر البشر فريض لهم منها بقدر ما يحتاجون اليه في امورهم الخصوصية وبعض الضرورات الادبية والتربوية فقال «الرؤيا جزء من ستة واربعين جزءاً من النبوة» وقال «ان من امتي ملهمين» وقال «الحلم والتؤدة والقصد من اخلاق النبوة» وبهذا تعرف نظر

النبي نفسه. إلى النبوة فإنها حالة مادية من التلقي والتخلق
ليس غير وكذلك يفهمها المسلمون وان نسب اليهم الدكتور
خلاف ذلك. فياليت له لم يكن صاحب هذا الرأي بل كان صاحبه
هو (فنسك) او (لامنس) اذا لهان الخطب .

وبعد فان كان الدكتور زكي مبارك يقصد بالمسلمين
الذين لا يفرقون بين رسالة النبي وانشانيته، هؤلاء الشعراء
المتصوفين الذين يجمعون في اقوالهم بين المبالغة والغلو والايغال
او قصاص الموالد الذين يعتمدون التأثير على العامة بانواع
الخوارق والمعجزات فانه يعلم حق العلم ان كلام كل من
الفريقين ليس مما يعتمد في النقل ولا يثبت عند النقد .



تاريخ حياة معدة لتوفيق الحكيم

لا يفهم القاري أنه أمام كتاب تاريخ حقيقي يسجل الحوادث بضبط ويستعرض الوقائع بامانة، اذن فيكون يجهل توفيق الحكيم الكاتب الموهوب والفنان المقتدر الذي ورخ النبي ولم يشتمل كتابه على رقم تاريخي واحد ولو كان رقم سنة الطبع.

انما هذه فكاهات وملح مما يروى في التطفيل واخبار الطفيليين جمعها المؤلف في نسق واحد وحاول ان يجعل منها قصة واحدة يكون «اشعب» الطماع بطلها ولم يخلها من ذكر الحب والحبية كما قسمها تقسيم القصص الى فصول، ولكن كل ذلك لم يجعل منها قصة متلائمة الاجزاء مرتبطة الاطراف ذات عقدة ينتظر حلها بمهارة وحذق كما يجب ان تكون القصة فان حوادث الفصل الواحد قد يضطر المؤلف الى بذل جهد ظاهر للتوفيق بينها وترتيب بعضها على بعض فما بالك بالفصول التي تستقل في غالبها ولا يكون بينها ارتباط ما او تسلسل اللهم الا وحدة الموضوع الذي هو التطفيل دائما.

ولا نقول ان الفن خان صديقه او تركه في هذه المرة، فان توفيق الحكيم وان سمي كتابه هذا في مقدمته «قصة» يعرف ان اسم القصة الاصطلاحي لا ينطبق عليه ولهذا تفنن في اسمه فدعاه «تاريخ حياة معدة» اذ سلب لفظة تاريخ دلالتها

المطابقة كما يفعل الفن بكثير من الالفاظ في كثير من الاحيان ولم يدعه «حياة معدة» فقط لئلا يتمحض للرواية الخالصة فبقي التاريخ هنا «كالتجريد» للاستعارة الذي يلائم المستعار له كما يقول اهل البيان وكان هذا الاسم من لطيف افتنان توفيق الحكيم.

نعم ان هناك اشياء لا فوافق المؤلف عليها منها ان ينسب كثيرا من وقائع التطفيل ونوادر اصحابه لاشعب ورفيقه (عند المؤلف والا فينهما بون بعيد في الزمن) بنان . ومع انه تقدم بنان الى عصر اشعب فجعله رفيقه وقرن بينهما في كثير من احوال العيش وانواع التحايل على الطعام وموائد الكرام ، فانه تاخر باشعب الى ما بعد عصره بكثير وجعله يحيى في عهد المأمون بالصراحة وما بعده بالتلويح كما يفهم مما نسب اليه من اخبار واشعار لغيره ممن نعرف تاخرهم عنه . على انا قد نقبل - لوجه الصنعة الفنية - ان ينشد اشعب او ان ينحل ما لغيره ولو تاخر عنه الا اننا لانقبل ان يقام غير مقامه في حضرة ملك لم يعيش في عصره ، وذلك في كتاب يطلق عليه ولو مسامحة «تاريخ» .

فكان على المؤلف ان يعدد اشخاص الرواية ويجعل حوادثها تقع في جيلين او ان يكتفي بحوادث اشعب وبنحله ما لم يعرف صاحبه من غير حوادثه واما الواجب الحتم فهو ان

لا يذكر أسماء أشخاص يعرف الجميع ان الشعب لم يعاصروهم
وانهم لم يعاصروه.

وناحية اخرى لا تغفل التنبيه عليها وهي هذا الخطأ في
الاعراب الشائع في الكتاب. ولا يقل لي احد ان هذا امر
هين، فما هو بالهين في حق كاتب يعد من الاعلام وهل يتم
الفن الا اذا كان جامعاً لشرائط الحسن حتى الكمالي منها.
بل انه ايضا يتحقق وجوده بهذا الكمالي الذي لا يمكن التهاون
به اصلاً. والله در العقاد اذ يقول في كتاباته اننا لا نرى كاتباً
غريباً يتساهل في اتباع قواعد لغته تسامياً بفنّه عنها او تجاهلاً
لها فنحن كذلك يجب ان نكون.

فمثلاً هذا الشطر: ما زلت اخذ روح الدين من لطف
صوابه في لطف.

وهذا الشطر: والدين مطرح جسم بلا روح

صوابه والدين مطرح جسماً بلا روح

ومثل هذا التصحيف وارد خطأ في كلام المؤلف

وهذا البيت:

انا التي لم ير مثلي بشر كلامي اللؤلؤ حين ينتشر

ظاهر ان صواب كلمته الاخيرة ينشر

وقوله «ذراعين الى داخل خير» صوابه ذراعان. وقوله

«وليس يناديه الاتجار عمله مستورون» صوابه مستورين

وهذا البيت:

هذا حبك مطوى على كمده حرا مدامعه تجري على جسده
صوابه:

هذا حبك مطويا على كمده وجدا وأدمعه تجري على جسده
كما تحفظه أو حزنا مدامعه أو حري مدامعه مما يمكن
أن يكون تصحف على المؤلف.

إلى غير ذلك مما يشغل تتبعنا له وعلى كل حال فقد
جمع المؤلف من أطايب أخبار التطفيل ما جعل كتابه شهيا
يلتذمه القاري المنهوم في ساعة وبعض ساعة وإن كان لم
يمزج بينها ويخلطها حتى تكون عجينة واحدة كما زعم هو.



فنون من القول يسبق لها اهل الاندلس

لا مشاحة في ان اهل الاندلس كانوا قد تمكنوا من
ناحية اللغة وظهروا على امرها فتصرفوا فيها احسن التصرف
وانقادت اليهم كل الانقياد فتغننوا في اساليب الكلام ما
شأوا ولم يبق باب من القول لم يطره شعره كان او نثرا
حتى لقد شأوا في بعض الصور البيائية المشاركة انفسهم الذين
هم ارباب اللسان والفصاحة وعندهم اخذت اللغة وبارضهم نزل
الوحي وحسبك دليلا على ذلك ابيات ابن عبد ربه التي لما
سمعها المتنبي قال داهيه يا ابن عبد ربه! لقد تأتيتك العراق حيواء
وهي هذه:

يا لؤلؤا يسبي العقول انيقا	ورشا بتقطع القلوب رفيقا
ما ان رأيت ولا سمعت بمثله	درا يعود من الحياء عقيقا
واذا نظرت الى محاسن وجهه	الفيت وجها في سناه غريقا
يا من تقطع خصره من رقة	ما بال قلبك لا يكون رقيقا

وهذا شعر فحل من فحولهم وعبقري من رجالهم فما
قولك في شعر سيدة من عقائلهم يدعيه اهل المشرق وينتحلنه
ادباؤهم مع وصفهم شعر المرأة بالضعف اية كانت لم يستثنوا
من ذلك الا الخنساء؟ وهذه السيدة هي كذلك خنساء المغرب

خمدونة فبت زباد المؤدب من وادي آش، وهذا الشعر هو قولها:
ولما ابى الواشون الافراقنا ومالهم عندي وعندك من ثار
وشنوا على اسماعنا كل غارة وقل حماتي عند ذاك وانصاري
غزوتهم من مقلتيك وادمعي ومن نفسي باليف والسيل والنار
وقولها وهو مشهور

وقانا لفحة الرمضاء واد سقاء مضاعف الغيث العيم
حللنا دوحه فحنى علينا حنو المرضعات على الفطيم
وارشفنا على ظمأ زلالا الذم من المدامة للنديم
يصد الشمس انى واجهتنا فيحببها ويأذن للنسيم
يروع حصاه حالية العذارى فتلمس جانب العقد النظيم

وكلا الشعرين من شواهد علم البلاغة كما يعرف
المثادبون وكلاهما ايضا مما انتحلله او نحلله هذا المدعو بالمازني،
ولكن كتاب الاندلس ومؤرخي ادابها قد نبهوا على ذلك
الانتحال، وناضلوا عن صاحبة الحق فيه اى نزال، واذا دل هذا
على شي فانما يدل على موهبة اهل الاندلس وابداعهم في
الشعر والخيال، بما قصرت عنه هم فرسان هذا المجال.

وكل هذا مقبول ومنقول، ومعروف وموصوف، اما
الذي قد يخفى على الناس ولا يكاد يتنبه له الا الخاصة من
الباحثين، فهو قنون من القول سبق اليها الاندلسيون فلم
يتاثروا فيها احدا واتوا بها على غير مثال تقدم فاصبحت تعد
من اختراعهم وتخسب من ابتداعهم الذي اغربوا به على من

سواهم من الاقطار العربية، ولم يسع أهلها ولو كانوا من
اصرق الناس في البلاغة والادب كاهل العراق الا الاعتراف
بفضلهم بذلك والتنويه بشأنهم وتأثر خطاهم والنسج على
منوالهم ولأجل الايضاح نقسم الكلام في هذا الغرض الى ثلاثة اقسام:

1 (الشعر

2 (النثر

3 (النظم

فاما الشعر فانه فضلا عما لعم فيه من الصور والمعاني
المستطرفة المستجادة قد ابتكروا فيه ابتكاريات أحدهما في
المعنى والآخر في اللفظ. فالذي في المعنى غرض جديد من
اغراض الكلام اضافوه الى الشعر العربي واكثروا فيه القول
حتى صار عندهم بابا مستقلا من ابواب الشعر لم يرو لغيرهم
من شعراء الاقطار الاخرى فيه شي* ولم يفتن له ادباء العربية
الا في العصر الاخير، عصر الانبعاث العربي، وهذا هو الشعر
الوطني السياسي، وقد افردناه ببحث نشرناه منذ مدة فلا حاجة
بنا الى بسط القول فيه الآن.

والذي في اللفظ ما توفقوا اليه من ابتكار الموشحات التي
كانت تجديدا حقيقيا في اسلوب الشعر العربي وطريقة نظمه
يعرفه كل معان للنظم على ما يوجبه العروض والقافية من
قيود وشروط حتى بذلك تأخر الشعر العربي عن مجارة
اشعار الامم الاخرى في بعض الاغراض التي يستحيل على الشاعر

العربي النظم فيها متقيداً بقيد القافية الثقيل كالملأحم والقصص
والتمثيل . وبالعكس فإنه بالموشح يمكنه أن يستوفي جميع
هذه الأغراض ويطيل قصيده ما شاء من غير أن يشعر بعجز أو
كلل في الوزن أو القافية بل يكون قد تفنن فيهما معا بما يزيد
شعره سلامة وعدونة ومكن لقارئه من تذوق معانيه وثقهم
أغراضه في غير حرج ولا عناء .

قال الشيخ أبو الخطاب بن دحية « الموشحات هي زبدة
الشعر ونسبته ، وخلاصة جوهره وصفوته ، وهي من الفنون
التي أغرب بها أهل المغرب على أهل المشرق ، وظهروا فيها
كالشمس الطالعة والضيء المشرق » .

وقال ابن خلدون « وأما أهل الأندلس فلما كثر الشعر في
قطرهم وتهذبت مناحيه وفنونه وبلغ التتميق فيه الغاية استحدث
المتأخرون منهم فناً منه سموه بالموشح ينظمونه أسباطاً أسباطاً
أو أعضاناً أعضاناً يكثرون من أعاريضها المختلفة ويسمون
المتعدد منها بيتاً واحداً ويلتزمون عدد قوافي تلك الأعضان
وأوزانها متتالياً فيما بعد إلى آخر القطعة . وأكثر ما تنتهي
عندهم إلى سبعة أبيات ويشتمل كل بيت على أعضان
عدها بحسب الأغراض والمذاهب وينسبون فيه ويمدحون كما
يعمل في القصائد وتجاروا في ذلك إلى الغاية واستظرفه الناس
جملة الخاصة والكافة لسهولة تناوله وقرب طريقه . وكان المخترع
له بجزيرة الأندلس مقدم بن معافر وأخذ عنه أبو عبد الله أحمد

ابن عبد ربه صاحب العقد ولم يظهر لهما مع التأخرين ذكر
وكسدت موشحاتهما فكان اول من برع في هذا الشأن
عبادة القزاز شاعر المعتصم بن صمادح صاحب المرية ، وقد ذكر
الاعلم البطليوسي انه سمع ابابكر بن زهر يقول كل الوشاحين
عيال على عبادة القزاز فيما اتفق له:

بدرتـم شمس ضحا غصن نقا مسك شم
ما اتم ما اوضحا ما اورقا ما اتم
لاجرم من لمحا قد عشقا قد حرم

ثم ذكر ابن خلدون جملة من الوشاحين الذين اتوا
بعد عبادة الى ان بلغ الى ابي بكر بن زهر فذكر موشحه
الفريد المشهور عند اهل المشرق قبل اهل المغرب وهو :

ما للمواله	من سكره لا يفيق	ياله سكران
من غير خمر	ما للكئيب المشوق	يندب الاوطان
هل تستعاد	ايامنا بالخليج	ولياينا
او تستفاد	من النسيم الاريح	مسك دارينا
واذ يكاد	حسن المكان البهيج	ان يحيننا
ونهر ظله	روح عليه اتيق	مورق فينان
والماء يجري	وعائم وغريق	من جنى الريحان

ثم ختم بذكر موشحة ابن الخطيب التي نسج فيها على
منوال ابن سهل وهي :

جادك الغيث اذا الغيث همي يا زمان الوصل بالاندلس
لم يكن وصلك الا حلما في الكرى او خلسة المختلس

* *

واما النثر فقد تفردوا فيه بفن عجيب يصح ان نسميه
بالنثر الرمزي او القصصي، وهو الذي يكثر الكاتب فيه من
استعمال امثال العرب والاشارة الى اخبارهم واياهم ويضمته
كثيرا من الابيات المفردة والمقاطع البليغة المشهورة مما لا يتأتى
معه فهم المراد وفك المعلق من رسالة ذلك الكاتب الا لصاحب
الاطلاع الواسع والاستحضار النادر والتبحر في فنون العلم والادب.
وذلك كما في رسالتي ابن زيدون الجدية والهجزية
المشهورتين وكفى بهما شاهدا في هذا الباب. على ان قلائد
الفتح بن خاقان تكاد تكون برمتها من هذا النمط ولذلك
احتاجت الى الشرح فشرحها الاديب ابن زكور الفاسي
كما شرح الادباء رسالتي ابن زيدون.

ولقائل ان يقول ان هذا اسلوب عرفه كتاب العربية
من قبل ابن زيدون في المشرق والمغرب. وانا لا انكر ان
يكون بعض الكتاب قد استعمل في كتاباته كنايات وتلميحات
من هذا القبيل، انما الذي اژهم التفرد به لكتاب الاندلس هو هذا
الاكثار من تلك الكنايات والتلميحات والاقتباس والتضمين
في الرسالة الواحدة حتى تصير رمزا مغلقا كما قلنا على غير
العالم المطلع، ولا سيما اذا كان الكلام مسجعا كانشاء الفتح

وغيره من رجال القلائد وهذا الأسلوب لم نر من يد فيه
 الإندلسيين حتى بعد بلوغه عندهم الى ذروة الكمال. وانما
 حسب الاتين بعدهم ان ينسجوا على منوالهم في النبذة
 المختصرة التي لا تبلغ ان تكون ربع رسالتي ابن زيدون
 فقط. ومثال من ذلك ما كتبه الوزير أبو جعفر بن عطية
 المراكشي الى مليكه عبد المومن بن علي يستعطفه وهو في السجن:
 «تالله لو احاطت بي كل خطيئة، وأصبحت نفسي عن
 الخيرات بطيئة، حتى سخرت بمن في الوجود، وانفت لادم من
 السجود، وقلت ان الله لم يوح، في الفلك لنوح، وابرمت
 لاحتطاب نار الخليل حبالا، وبريت لقدار ثمود نبلا، وحططت عن
 يونس شجرة اليقطين، واوقدت مع هامان على الطين، وقبضت
 قبضة من اثر الرسول فنبذتها، واقرت على العذراء البتول
 فقدفتها، وكتبت صحيفة القطيعة بدار الندوة، وظهرت الاحزاب
 بالقصوى من العدو، وابغضت كل قرشي، واحببت لاجل
 وحشي كل حبشي، وقلت بان بيعة السقيفة، لا توجب امامة
 خليفة، وشجذت شجرة غلام المغيرة بن شعبة، واعتلقت من حصار
 الدار وقتل اشمطها بشعبة، وقلت تقاتلوا رغبة في الابيض والاصفر
 وسفكوا الدماء على التزيد الاعقر، وغادرت الوجه من الهامة
 خضيباء وناولت من قرع سن الحسين قضيبا، ثم كنت بحفرة
 المعصوم لائذا وبقيع المهدي رضي الله عنه طائدا، فقد آن لمقاتلي

أب تسع، وإن تغفر لي هذه الخطيئات أجمع، مع أنني معترف
وبالذنب معترف:

فعفوا أمير المؤمنين فمن لنا برد قلوب هذه الخفقان
والسلام على المقام الكريم ورحمة الله وبركاته،

وما كتبه الصلاح الصفي في ترجمة أبي حيان النحوي المشهور:
«لو رآه يونس بن حبيب لكان بغیضا غير محبب، أو
عيسى بن عمر لأصبح من قصيره وهو محذب، أو الخليل
لكان بعينه قذاة، أو سيبويه لما تردى من مسألته الزنبورية
برداء، أو الكسائي لأعراه حلة جاهه عند الرشيد وإناسه، أو
الفراء لفر منه ولم يقتسم ولدا المأمون تقديم مداسه، أو أبو
عبدة لما تركه ينصب لشعب الشعوبية، أو أبو عمرو لشغله
بتحقيق اسمه دون التعلق بعربية أو السكري لما راق كلامه
في المعاني ولا حلا، أو المازني لما زانه قوله أن مطابكم رجلا
أو قطرب لما ذب في العربية ولا درج، أو ثعلب لاستكن
بمكره في وكره ولما خرج... الخ، وهو كما رأيت متكلف
بازد في بعض المعاني والاسجاع تكاد الغثاة والتلفيق يغلبان
فيه على الانطباع.

أما رسالتا ابن زيدون فهما من الشهرة بمكان فلا حاجة
بنا إلى إيراد شيء منهما وبوسع كل أحد أن يرجع إليهما
متى شاء في ديوانه وكثير من مجاميع الأدب.

واما النظم وتعني به نظم العلوم فانهم قد ارتبوا على المشاركة وغيرهم اذ شاركوهم في مطلق النظم وتفرّدوا بنوع غريب يستعملون فيه رموزا واصطلاحات خاصة فيلمون في المنظومة الصغيرة والابيات القليلة بقواعد علم كامل من العلوم ويحصلون مسائله ويضبطون اصوله بحيث لو لم يتأتوا لها ذلك التآني اللطيف ويسلكوا لها ذلك المسلك الغريب لما وسعتهم الكتب المطولة والموضوعات المبسوطة لاستيفاء تلك الاغراض وتحصيل تلك المقاصد. وانظر الى قصيدة (حرز الاماني) في القراءات السبع المعروفة بالشاطبية نظم ابي القاسم الشاطبي رحمه الله فانها على اختصارها جمعت زبدة القراءات واحتوت من ذلك على علم غزير، ولذلك تجد الكثير من اهل العلم يحفظونها وقد خضع لها كبار الشعراء والبلغاء، وحذاق اهل الرواية والقراءة.

وقال ابن خلكان في ترجمة الشاطبي: «انه ابداع في حرز الاماني وهي عمدة قراء هذا الزمان في تعلمهم فقل من يشتغل بالقراءات الا ويقدم حفظها ومعرفة ما. وهي مشتملة على رموز واشارات لطيفة وما اظنه سبق الى اسلوبها» واصطلاحه رحمه الله هو الذي اشار اليه بقوله :

جعلت (أباجاد) على كل قاري دليلا على المنظوم اول اول
ومن بعد ذكر الحرف اسمي رجاله متى تنقضي اتيك بالواو فيصلا
سوى احرف لا رية في اتصالها وبالقيد استغنى عن القيدان جلا

ومن هذا الباب قصيدة (غرامي صحيح) لابن فرح الأشبيلي
التي جمع فيها القاب الحديث بأسلوب عجيب ومنهج غريب إذ
سلك بها مسلك أهل الغزل في ظاهر اللفظ وحمل كل لقب
من القاب الحديث على معنى يليق بهذا الغرض حتى لو القيت
على عربي فصيح خالي الذهن من اصطلاحات أهل الحديث لما
فهم منها إلا معاني غزلية رقيقة تشرح لها النفوس وتغبط بها
القلوب ومطلعها:

غرامي صحيح والرجا فيك معضل

وحزني ودمعي مطلق ومسلسل

وقد اعتنى جماعة من الأفاضل بهذه القصيدة فشرحوها
والعلامة الصبان قصيدة على نهجها وفي موضوعها أولها:
صلوا صحيح غرام صبره ضغفا وبدلوا قطع من في حكم شغفا
وهذا التائر لخطاه والعمل على منحاها من العلامة الصبان
هو وحده دليل على مكانة الرجل وقيمة قصيدته.

ومن هذا الباب أيضا قصيدة أبي الجيش محمد ضياء الدين
الخرزجي الأندلسي المعروفة بالخزرجية في علمي العروض
والقافية التي سارت بذكرها الركبان والتي جمعت مهمات
العلمين في تسعين بيتا ونيف بفضل ذلك الأسلوب البديع
الذي المعنا إليه وهو الرمز والإشارة. فبعد أن يقول في المطلع:

للشعر ميزاب يسمى عروضه

بها النقص والرجحان يدر بهما الفتى

فيأتي به نظاما واصحا لا غبار عليه، يقول رامزا لاجرا
التفصيل العشرة مشيرا اليها بحروف (أبجد):

اصابت بسهميها جوارحنا فدا
ركوني بهمة كوقعيها سوى
فما زائراتي فيهما حجتهمـا

ولا يد طولاً هن يعتادها الوفا

الى غير ذلك. وقد بقيت ردحا من الزمن بكرا بخاتم
ربها الى ان اقتضاها الشريف ابو القاسم السبتي (لا الغرناطي)
وكتب عليها شرحه (رياضة الابي) فعد ذلك من عبقرياته
وتتابع الكتاب عليها بعد ذلك.

ويظهر ان علامتنا الصبان كان معجبا بهذه الآثار
الاندلسية جدا فكما طبع على غرار قصيدة ابن فرح كذلك
نسج على منوال قصيدة الخزرجي قصيدة لامية يقول فيها:

وبعد فعلم الشعر فن مؤكد

فبادر اليه واستمع فيه ما حلا

* *

واما بعد، فقد قال ابن غالب في فرحة الانفس: « اهل
الاندلس (عرب) في الانساب والعزة والانفة وعلو الهمة وفصاحة
اللسن وطيب النفوس واباء الضيم وقلة احتمال الذل والسماحة
بما في ايديهم والنزاهة عن الخضوع واتيان الدنية (هنديون)
في افراط عنايتهم بالعلوم وحبهم فيها وضبطهم لها وروايتهم

(بعد اديوت) في نطافتهم وظرفهم ورقة اخلاقهم ونباهتهم
وذكائهم وحسن نظرهم وجودة قرائحهم ولطافة اذهانهم وحده
افكارهم ونفوذ خواطرهم، زاد ابن حزم: «(صينيون) في اتقان
الصنائع العملية واحكام المهن الصورية» (تركيبون) في معاناة
الحروب ومعالجة الاتها والنظر في مهماتها. واني انشد هنا
ما انشده ابو الفرج بن الجوزي في المدهش:

خطوا واقلامهم خطية سلب

فهم على الخيل اميون كتاب

ان احسنوا كلما واخولقوا ذمما

واخشوشنوا همما فالقوم اعزاب



جند صهيون

جائي صديقي وهو ثائر النفس مغتاض يسب ويلعن
هذا الزمن الذي ازري بالكرام وادال منهم للثام وسخرهم
للاراذل وجعلهم سخرية المحافل. فعجبت من حاله وكيف
انقلب من هدوئه المحبوب وسكونه المرغوب الى هذه
الثورة العنيفة التي قل ان شاهدته في مثلها طيلة ايام صداقتنا
واسفت لضياح هذه الامسية التي كنت اقدر انها ستكون من
خير اوقات العمر نشاطا وانسا بالفسحة مع الصديق والتحدث
اليه في كل شأن من شؤون الكون والحياة وجعلت اكبح
من جماح نفسه واسكن من ثورته واتلمس اسباب هذا الانقلاب
الفجائي في سلوكه هذا الذي لو حدثني به عحدث - ايا كان -
ما صدقته ولا وثقت به لكنني الان اراه عيانا واشهد دلائله في
وجه الصديق وملامحه واشاراته وصباراته فلا شك انه قد استفز
استفزازا لا يطاق واستثير بما لم ييق معه في قوس صبره منزع
وشعرت بالصديق كأنه يريد ان يخفي عني اسباب
ثورته وبواعث غضبه فلم اخرج به بالسؤال الصريح وان كان
في نفسي حرص شديد على معرفة ذلك، فلما راني اهون
عليه الامر واحاول تسليته ما امكن قال لي انك لو تعلم
السبب في تأثري هذا وسخطي على الزمن الخؤون لتقطع

نفسك خسرات ولما وجدت صبرا على مفضض الايام ونكد
الحوادث وعبر الدهر وانقلاباته. قلت ما اشوقني الى معرفة
ذلك فاشاركك وجدك وحزنك واعزيك ان قدرت تغرية خاصة
حارة بدلا من هذه التسليات العامة الباردة التي اكررها عليك
منذ التقينا وما استطعت بها الى نفسك وصولا.

فقال كنت اتيا الى لقائك طيب النفس منشرح الخاطر
مستبشرا بما سألقاه في محادثتك من غبطة وسرور وقد رتبت
في نفسي برنامجا للفسحة لا شك انه كان سيروقك جدا وما
عرفت كيف ملت عن الطريق المعتاد الى زقاق جانبي
ظننت اني سأختصر به الطريق ولم يخطر ببالي اني ساضل به
هذا الضلال البعيد وان ذلك شان البنيات ولازم الانحراف عن
الجادة، فلما توسطت الزقاق وجدتني بالقرب من دار احد
اليهود وعلى بابها يهودية تسكت ولدها وهو يبكي وقد سمعتها
تقول له حين لمحتني وكان كلامها بالفرنسية كسائر اليهود
المتمدنين الذين لم يبقوا يرضون التكلم بالعربية: «انظر هذا
المسلم. انه سياخذك ان لم تسكت».

وسكت صاحبي ونظر الي وهو يلهث كانه كان حاملا
لشيء ثقيل قد اده وانعبه. وكنت انا ابتسم لما سمعت من
حكايته واعجب من شدة تأثره. فلما راني كذلك ساء ظنه
في وعجب من تبلد شعوري وكيف لم استحس ما في الواقعة
من زراية وهوان، فقلت وهل اجبت صاحبك بشيء او اشعرتها

على الأقل أنك فهمت ما قالت فقال لا لم اقل لها شيئا ولقد
هممت ان اصك وجهها ولكني تذكرت انها امرأة جاهلة على
كل حال . فقلت لصاحبي جاهلة حيث انها جعلتك في اناقتك
وجمال هندامك مثل الغول او البونع الذي يخوف به الصبيان .
قد والله جهلت جهلا مركبا . قال لا تسخر مني وكفى ما رايتك
من موت شعورك وكثافة حسك هذه العشيّة .

فربتت على كتف صاحبي وقلت له هون عليك يا عزيزي
ولا تبتئس ولا تحزن بما يوجب السرور والفرح . انك قد حملت
الي بشرى عظيمة في هذه العشيّة وقد كان الواجب ان تقص
علي الخبر من اول وهلة لنبدأ سرورنا وابتهاجنا بهذه الفسحة
في اول الطريق . اذا كان اليهود العصريون يخوفون اولادهم
بنا كما كان يفعل اوائلهم فنحن لنا النصر والفلج بذلك اذ
يكبر اولادهم على رهبتنا والتوجس منا فكيف يجراؤون بعد
على رفع راسهم امامنا او القيام بحركة عداً نحونا . اذا كان
هؤلاء هم جنود صهيون الذين يعتمد عليهم في بناء ملكه وتمهيد
عرشه فبشره من الآن بالخيبة والخسراف ! ولما قلت لك هل
اجبت صاحبك بشي خشيت ان تكون نبتها بعد الغفلة
فلما قلت لي انك لم تجبها بشي سررت سرورا عظيما بتركك
لها في حمايتها ومن يدري انها كانت تحكي كلامك لزوجها
فيجعلها تعدل عن خطتها في تربية الاولاد وما نشأ نحن ان
يتنبه هذا العنصر الدخيل لمثل هذه الامور .

وقد سري عن صديقي بهذا الكلام وسر بقدر ما كان
ساخطا اول الامر ومرت امسيتنا بعد ذلك على ما كنا نتمناه
من الانشراح والمتعة.



درهم بديار

كانت بنت احدى الاسر الاصيله ولكن الفقر غرض من مكانها وخط من قدرها في هذا المجتمع الذي كل الاعتبار فيه مبني على الدرهم والديتار . وكانت على جانب من الجمال وصناع اليد ومن ملكات العفة المتوجه بتاجها الثمين .

تزوجها رجل من اولئك العامة الذين ملأت ادمغتهم الاساطير العنصرية والاسماعلية وثقفوا مثلها وسخافاتا فخالوا انفسهم قد عرفوا كل شي * وماروا بحيث لا يعجزهم شي * . وكان سمسارا لكنه لم يكن يسمسر عروض التجار بل كان ياتيها بالثوب فتخطيه فيسمسره ويبيع ليربح ربحا مضاعفا . ويأتيها بقطعة الاثاث فيامرها بصقلها واصلاحها ثم يسمسرها لحسابه فيبيعها كذلك حتى صار من ذوي اليسار ان لم يكن في الناس مطلقا ففي السماسرة امثاله بغير شك .

وامتلك بعض العقار وما فتي يجد ويجتهد وزوجه من ورائه تجري معه الى الغاية التي ينشدها . تشقى ليسعد وتتعب ليستريح ولاكنه لم يكن يرى لها شيئا من الفضل او يعطيها قليلا من الحق فيدلس عليها كما يدلس على زبائنه في السوق يزعم لها انها عاقر وهو العقيم ويتظاهر لها بالافلاس ليتماذى في استغلالها ويتفادى من اجابة مطالبها وهو الغني الذي جمع ثروته من شغلها وادابها حتى اذا سول له الشيطان ان يضحي

بها في سبيل شهوته ويقدمها قربانا بين يدي أنانيته جاءها ذات يوم بسودا قال انها ممن يتعامل معه من خارج المدينة وانها ستبيت ليلها عنده وتذهب في الغد .

فقامت الزوج المخدوعة بخدمة السودا واحسنت ضيافتها ولما كانت الغد لم تذهب ولم يقل لها الزوج شيئا، انما السودا اخبرتها انه تزوجها وانها صارت ضرة لها وان البيت عاد لهما معا وانها اصبحت شريكها في كل شي فعرفت جلية الامر ورأت ان المقام بذلك البيت ضرب من الانتحار .

وفي غفلة من الرقبا تحولت الى منزل والدها وكان بيتا من الخشب في قطعة ارض محاطة بحظار من القصب والاعواد على مسافة قريبة من بيت ذلك الزوج الخؤون فلزمت المنزل رغم محاولته العديدة لارجاعها الى بيته ولكنها لم ترجع وضحت بجميع شوارها في سبيل حريتها وخالعته وانبت حبلها منه .

وقضت عدتها بين خدمة ابيها الذي كان فريدا في المنزل وغراسة بعض النباتات والرياحيت في قطعة الارض التي كان ابوها يقوم بفلقها ويقنات مما تخرجه من بقول وخضراوات . وكان الزوج المحروم الذي شعر في الحيف بفراغ بيته وخراب عشه ياتي اثنا مدة العدة يطوف بالمنزل ويطل عليها من فرجات الحظار ويناديهما فحينما تشعر به تختفي في البيت الخشبي ولا تعود الى الظهور حتى يمل ويذهب .

وهكذا الى ان انقضت عدتها وتقدم الى ابيها شاب من

حيلة القرأت وصي الوحة في الثياب من أمل الطلبة الذين
يحترمهم كل من رآهم مخطبها وتزوج وخرج بها الى البادية
حيث كان يشتغل بتعليم صبيان احدى القرى ويؤم الناس
في مسجدها. وهناك حيث الهواء الطلق والعيشة الراضية تحررت
من قيود العمل المضني التي كانت تغلها وتكبلها واستعادت
صحتها وجمالها كاحسن ما كانت وأبهاه.

وبعد مدة رزقت من بعلها الجديد بابن افتر له ثمر سعادتها
وانبعثت به حيوية امومتها التي كان قضي عليها كذب الزوج
القديم.

حدثني بقصتها يوم وفاة هذا الزوج عن غير وارث صديقي
الذي عرفني بالطالب الذي تزوجها فعرفته واخبرني انه رآه
قبل ذلك بقليل ومعه ابنه منها وهو في سن السابعة تقريبا
وبمنتهى الملاحظة. فقلت سبحن الذي ابدل درهمها بدينارين!



السيد المختار

ليس السيد المختار من رجال السيف ولا من رجال القلم ولكنه من رجال الفكر الذين يقل لهم النظر، هكذا يعد نفسه ويعرف من لم يكن يعرف عنه ذلك ولكن بطرق واساليب لا تمتنع على حذقه ولا تعوز حسن تصرفه .

هو يحدثك اولا عن تأخر هذه الامة وانحرافها عن سبيل الرشد ويلفت نظرك الى ما بلغ اليه غيرها من الرقي في العلوم والمعارف والحضارة والفنون. ثم يشير الى اسباب كل من هذا التأخر الذي أصابنا والرقي الذي عليه غيرنا من الامم ويذكر من جملة ذلك كسلنا وجدهم وبخلنا وبذلهم وقناعتنا وطموحهم وخوقنا وشجاعتهم ثم يقول اننا يعوزنا رجال من ذوي الفكر الصائب والنظر الثاقب لينظروا في دائنا ودوائنا ويضعوا الخطط اللازمة لانتشالنا من هذه الهوة السحيقة التي وقعنا فيها ولكن مع ذلك يلزم ان يقوم الشعب بتنفيذ هذه الخطط والعمل بمقتضاها مناعا لاوامر من وضعوها غير مبدل منها شيئا معترفا بما لهم من الفضل عليه وناظرا اليهم نظر اجلال وتقديس، لانهم الذين اعادوا اليه ريقه بعد ان كان في السياق ونفخوا فيه الحياة وقد اشرق على الموت .

غير انه - ويا للأسف - لا يرى في الشعب استعدادا لقبول افكار المصلحين وخطط المجددين لانه هو - وهذا شيء واقع -

كثيرا ما فكر وقد تم بحث ونظر وطلع على الناس بأفكار
حديدة وخطط مفيدة راميا الى تحسين مظهر هذه الامة طورا
والى تنوير عقلاها طورا^٢ اخر وعرض ذلك على كثير ممن
يظن فيهم الغيرة والتحرق على مستقبل الوطن واهله، ولكنهم
كانوا لا يرفعون بذلك راسا ولا يحيرون جوابا، فيمضي طاويا
على حزن ويكاد ييأس من صلاح هذه الامة التي اعنى علاجها
نطس الاطباء وحيل المفكرين.

وبمثل هذا الاسلوب يفرغ السيد المختار جعبته ويفضي اليك
بذات نفسه فتعرف انه من اعظم المفكرين، واكبر المصلحين الا
انه كالنبي الذي ضيعه قومه تذهب دعوته ادراج الرياح ولا
يستجيب له احد من الناس.

وتفكر انت في الرجل الذي له كل هذا الاهتمام بمصالح
امته والحرص على مستقبلها فتقول في نفسك ماذا يصير لو كان
السيد المختار مشرفا على مقدرات البلاد ومديرا لدفة سياستها
ويحسن في نظرك ان تظهره على هذا الحاضر فيقبل منك بكل
تلهف ويبدأ في عرض برنامجه الطويل الشامل لاصلاح حالة الامة
مادة ومعنى دينا ودنيا فيبدأ بمسألة الكتاتيب والافران
والحمامات وسقائي الماء وينتهي بتنظيم وزارات الجو والبحر
والحربية وغيرها فلا يفرغ من حديثه حتى تشعر بان هذا
المغرب البائس الحظ الآن قد صار اعظم شانا واكبر خطرا في
النظام الداخلي والسياسة الخارجية من بريطانيا العظمى!

وأنتك ترى أن ذلك خيال بعيد التحقيق وأمل لا طمع
في الحصول عليه الآن على الأقل، ويشعر المفكر العظيم بما
يجول في فكره وما خامرك من الشك في أمره فينسبك الى
التأسف على عدم امكان تطبيق هذا البرنامج ويقول (ان الله
تعالى يعطي الفول لمن لا اسنان له) غير انه ما لا يمكن كله
لا يترك كله، فعلينا ان نأخذ ببعض هذه التدبيرات ونبدأ منها
بما هان ونترك ما صعب.

ففي باب التعليم وتنوير عقول الناشئة يجب ان نستحوذ
على هذه الكتابات القرائية وندخل عليها بعض اصلاحات تصير
بها نافعة. في الجملة مفيدة بعض الفائدة ونبدأ للتجربة باحدها
ونطبق فيه الخطة المتوخاة فحين ما تمر عليه سنتان او ثلاث
وتظهر النتيجة المحمودة للعيان يكون ذلك مشجعا على المضي
في طريق الاصلاح وتطبيق الخطة على الجميع.

وياخذ بعض الناس بقول المفكر العظيم في هذه المرة
لحسن الحظ ويعولون على العمل فيقيدهم بكتاب مخصوص
يكون به الابتداء ويتكلف هو بامر حيازته لانه حبس احدي
قريباته على التعليم، انما هو الآن في يد احد المكتبيين الذين
شاخوا وعجزوا عن العمل وقد اغلقه وذهب لحال سبيله، ويبقى
مفكرنا يجول بنظره في طريقة العمل فيرى انه يجب قبل مخاطبة
السيدة صاحبة الحبس ان يأخذ بخاطر المكتب نظرا لشيخوخته
ولانه رجل متيرك به ولكن قبل انتهائه الى نتيجة عملية ياتي

أحد الطلبة البدو فالتقي بالشيخ المكنب ويطلب منه أن يعطيه مفتاح الكتاب «ليسترزق» الله فيه بتعليم الصبيان فيناوله الشيخ المفتاح بطيب خاطر ويحتل البدوي الكتاب ببضعة من الصبيان ويزاد في رقعة الشطرنج بغل!

وبضياح الكتاب قضى على الفكرة من أساسها ولم يعد يفكر فيها أحد، وحملت المسؤولية على الظروف التي صار من طبيعتها أن لا تساعد على عمل خير كما قال المفكر العظيم، ولكن الأمل لم ينقطع في الخطط الإصلاحية الأخرى التي يهتم بها حضرته، فقد عرض على الناس هذه المرة مشروعا يتعلق بتحسين مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية يرى أنه لا اعتبار لنا عند أحد ما دما لم نقيم به.

وقد انصاع له ثلثة من الناس أيضا ولكنهم عولوا على السعي بانفسهم في تنفيذ هذا المشروع. وكان قدر له نحو الخمسين ريالاً فجمعوها من تبرعات بعض المحسنين بطريقة سرية - كما كان يقترح المفكر العظيم دائما - وبعد مداولة واخذ ورد وفي ظرف عدة اسابيع فقط اتفقت كلمة المفكر مع كلمة العاملين على نوع ولون وعدد اذرع الثوب الذي فصل منه غطاءً يوضع على النعش حين حمل الجنازة الى المقبرة! - وكان هذا هو المشروع التحسيني الذي يهتم به المفكر العظيم ردحا من الزمن.

فلتحى الامة! فلتحى الامة!

ذكرى الهجرة

كتبت هذه الكلمة للجنة الاحتفال بذكرى
الهجرة في الدار البيضاء عام 1860

ان ذكرى الهجرة يجب ان تكون بالنظر الى الهجرة
من وجه عملي يحفز الامة الى العمل والنسج على منوال اولئك
الاسلاف الاطهار الذين باعوا انفسهم لله ببيع السماح وزهدوا في
متاع الحياة من مال وبنين ومساكن واوطان بغية الوصول
الى مثل اعلى من سمو الروح وقديسية النفس في ظلال الوحي
الوريفة وكنف الاسلام الرحيب.

وان من محاسن الاسلام التي لم ار من ثبته عليها اب
كل ما اتى به من الشعائر وقرضه من الواجبات، سوا الموقت
منها والممتد، هو حظ مشاع بين اتباعه ودعوة عامة لمعتنقيه
اينما كانوا وفي اي وقت وجدوا. فلا يحرم من ذلك الفضل
احد ولا يختص بهذا الخير متقدم دون متأخر:

فاما فيما امتد حكمه من الشعائر والواجبات فالامر واضح
واما في الوقتي منها المنقطع بانقطاع سببه فانه ان لم تبق صورته
مع يذل الثواب العظيم عليه كما في بعض اعمال الخج، فلا بد
ان يعوض منه عمل آخر يكون دائما ويكون له قيمة المعوض
سوا بسوا.

هذه الهجرة التي أمر الله بها الدين ورفع مكانه عاليا بين الناس والتي تعتبر حادثا فاصلا في حياة الاسلام والنبي عليه السلام اذ بها امن هو واصحابه رضوان الله عليهم على انفسهم وامكنهم التظاهر بعبادة ربهم والدعوة الى الله كما امر ودفاع من طغا عليهم وتجبر حتى قال الله عز وجل فيهم «الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله باموالهم وانفسهم اعظم درجة عند الله، اولئك هم الفائزون، يمشيهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها ابدا، ان الله عنده اجر عظيم» وقال تعالى «للفقراء المهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم واموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله اولئك هم الصادقون» وقال النبي صلى الله عليه وسلم «لولا الهجرة لكنت امرأ من الانصار» وقال لمن سأله من اصحابه ان يدلّه على عمل يستقيم عليه «عليك بالهجرة فانه لا مثل لها».

هذه الهجرة قد انقطع سببها وانقضى موجبها ولكن الشارع الحكيم لم يشأ ان يحرم الامة من مثل هذا العمل في ثوابه العظيم واجره الجسيم فعوضها عنه امرا باقيا لا ينتهي وجعل له مثل فضله ورغب فيه وحث عليه فقال مخبرا ومنشئا «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية»!

مرحى ! مرحى ! ايها الدين الكريم، ايها الرحمة المهداة، انتا نعمة قدسية وعطفة علوية، ترفرف على هذا الانسان الضعيف وتجذبه نحو سماوات الكمال ليتطهر ويتقدس، فلا

يبتس أحد ولا يئأس ، وبالجهاد ، اعني بذل الجهد في اعلاء كلمة الله ، وبالنية اعني الاخلاص في العمل يدرك مقام من مدحهم الله عز وجل بقوله « اولئك هم الصادقون ، اولئك هم الفائزون » وفي الحديث : ان اعرابيا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الهجرة فقال ويحك ! إن شأن الهجرة شديد فهل لك من ابل ؟ قال نعم ! قال فهل تؤدي صدقتها ؟ قال نعم ! قال فاعمل من وراء البحار فإن الله عز وجل لن يترك من عملك شيئاً ، فبشرى معشر العاملين بشرى ! فإن الله لن يضيع عملكم من وراء البحار وان القدوة الاعظم صلى الله عليه وسلم لينظر اليكم - وأنتم في بلادكم - نظره لمن هاجر الى الله ورسوله لان معنى الهجرة قد تحقق معكم . وما معنى الهجرة الا العمل لاعزاز دين الله فإن كان في عدم الهجرة اعزاز لدين الله فان ترك الهجرة هو الهجرة !

وفي هذا المعنى كما لا يخفى رد على كثير من المتشائمين العجزة الذين يستعظمون هذه الاخطار ويجزعون مما يرون من الخطوب فيستخذون ويستسلمون ولا يرون وسيلة للنجاة الا الهجرة ومفارقة الاوطان جاهلين او من جاهلين انه لو اخذ الناس جميعاً برأيهم لكان معنى ذلك تسليم بلاد الاسلام الى العدو وتحقيق رغبة لم يستطيع ان يحققها بالسيف والنار . وأي فرق بين ذلك وبين الفرار يوم الزحف وتولية العدو الادبار ؟

حقاً إنها ديمقراطية استعمارية خبيثة ولاكن الحمد لله على ان
العوامل الطبيعية التي تقاومها اقوى من العوامل السياسية التي
تشجعها . وأذكر اني كنت اتحدث منذ بضعة اشهر مع بعض
الفرنسيين في الاحوال الحاضرة فقال لي ان مصيبتنا هي المصيبة
واما انتم فأمامكم الشرق والبلاد المقدسة يمكنكم ان تهاجروا
اليها . واجبته كلا | فإننا لن نهاجر ولن نترك هذه البلاد فانها
وديعة الاسلاف عندنا واذا ضيعناها نكون خونة مثل رئيسكم
التي تحدثت لي عنه (بيتان) فابتسم وقال انت وحدك تقول
هذا |

وبعد فلما استقر الاسلام واخذ اتجاهه الاخير في تتميم مكارم
الاخلاق قال النبي صلى الله عليه وسلم «المسلم من سلم المسلمون
من لسانه ويده والمهاجر من هاجر ما نهى الله عنه » فعم لفظ
الهجرة بعد ما خص وراجع شموله ليدخل كل من تعلق قلبه
بهذه الفضيلة ويحقق ان الاسلام دائما هو ذلك الدين العملي
المساير للمصلحة العامة جنباً لجنب وان جميع فروضه هي مطالب
منطبقة على العقل والمنفعة الحقيقية للانسان فاذا قام بها
المكلفون سعدوا سعادة دائمة ورقي المجتمع رفقا عظيما واي فوز
وفلاح للبشر اكثر من ان يهجروا مانهى الله عنه!؟

في عيد الكتاب

«القي هذا الخطاب بمناسبة افتتاح المكتبة
البلدية في يوم عيد الكتاب الواقع في 23
ابريل 1941 بمسرح سربانطيس بطنجة»

ايها السادة

طلب الي ان اتكلم في هذا الحفل المشهود على انه موسم
ادبي رفيع لا ينبغي ان يتكلم فيه الا باحاديث العلوم والآداب
واسمار المعارف والفنون. فانا فضلا عن الاعتبار الخاص الذي
افردت به من بين سائر من لهم استعداد لذلك، احببت ان
يكون اليوم حقا يوما ادبيا زاهرا وان لا يسمع فيه الا صوت
العلم عاليا رفيعا. فقطعا للطريق على اولئك التثرارين المهذارين
وسدا للمجال في وجه كل مداح افاك قد مل الناس حكومة
وشعبا سماع اباطيله وترهاته، اجبت الطلب بكل سرور.

وما ذا عساني اقول في يوم المكتبة والكتب ؟ وما ذا
اتحدث به عن الكتاب والمكتبة ؟ وهما دمامة الحياة الفكرية
في كل الامم ومظهر النشاط الادبي ونتيجة خصب العقول
وتفتح القرائح. فالشعب الذي لا يقرأ، لا يسير غور الحياة ولا
يقوم بالتغذية اللازمة للفكر المنهوم. والشعب الذي لا يكتب
انما يبرهن على جموده وتبلد احساسه وانه شعب عقيم ليس
فيه استعداد للانتاج.

وأول مقياس التطور فكر الشعب وثقافته هو هضمه لما
يقراً وتمثله له في أساليب تعليمه وتربيته. وأعظم مظاهر
عبقريّة الشعب ونبوغته هي كتبه ومنتجات عقول أبنائه.
فالكتاب إذن هو باعث الحركة الادبية ودليل الحيوية الفكرية
في كل عصر وفي كل جيل. والمكتبة هي معبد الفكر ومعتكف
المفكرين وهي المعمل الذي تصنع فيه العقول وتصاغ الاذواق.

وها نحن نرى الامم الحية اول ما تجتهد فيه ان تمحو
اثر الامية من بين افرادها حتى تهيئهم بذلك للقراءة ثم تسهل
لهم سبل هذه القراءة حتى تجعلها منهم على طرف الشمام. فتضع
بين ايديهم من الجرائد والمجلات والكتب الخفيفة من كل
نوع، وفي كل فن، ما يستطيعون به ان يتتبعوا تطورات
العالم في السياسة والاقتصاد والعلم والادب. تؤسس لذلك
المكاتب القارة في المدن والاحياء والمتنقلة في الشوارع والقرى
تسهيلا على من يريد المطالعة بل ترغيبا له فيها. وتقيم معارض
دورية للكتب بمناسبات مختلفة تقديرا لها واعلانا عنها. وتمنح
للكتب الناجحة جوائز قيمة مكافأة لاصحابها وتشجيعا لهم في
الوقت نفسه على مواصلة الانتاج.

وهكذا تخلق من طبقات الشعب الفقيرة والجاهلة
مجموعات من المثقفين والمتعلمين يعرفون واجباتهم الوطنية
ويحترمون انفسهم ويؤدّون ما عليهم من الحقوق بدافع من

انفسهم ولا يألون جهدا في تحقيق المثل الاعلى لاممهم التي
تريد ان تحيى دائما حياة العز والشرف.

وبذلك كثرت الكتب كثرة لا مزيد عليها وكثر
الاقبال على القراءة بحيث يستنفد كل إكتب، فالكتاب تطبع
منه ملايين النسخ، والكتاب تطبع منه مآت ألوف النسخ، والكتاب
تطبع منه عشرات ألوف النسخ، وكلها تقرأ وتنفد، ويصبح
بعد قليل من اندر النوادر.

هذا عند الامم الحية في العصر الحاضر وبعد اختراع
المطبعة التي هي من اعظم المنن على الانسانية.

وفي العصور الغابرة عرف القدماء قيمة الكتاب واجلوه
وبذلوا في تحصيله كل نفيس وغال. فالكلدان يون والعبرانيون
كانوا من اول الامم اشتغالا بالعلوم والمعارف وتقذيرا للكتب
والمكاتب. واهل فارس والهند والصين هم ايضا من سباق
هذه الخلبة، وقد اعتنوا بطلب الحكمة وتحصيل الاداب فبرعوا
في هذا الصدد براءة تامة واودعوا خلاصة معارفهم في كتب
نفيسة تناقلتها الامم بعدهم ومنها كانت تتكون مكاتب العهد
القديم. والجميع يعرف قصة كتاب كليلة ودمنة الهندي وما
بذله الملك الفارسي قي سبيل الحصول عليه من الجهود الكبيرة
مما يدل على اهتمام القوم بالكتاب وتقديرهم له التقدير العظيم.
واليونان هم معلموا القرون ومهذبوا الاخيال بفلسفتهم
وطبهم وهندستهم وادبهم وهم الذين تركوا الذخائر العالية من

الكتب العلمية والفنية التي لا كفا لها ولا نظير.
والمصريون هم أول من استعمل ورق البردي للكتابة
وتخليد الآثار الفكرية القيمة وناهيك بما جمعه من كتب
العلم والمعرفة وما كانت تحويه مكتبة الاسكندرية المعروفة
في عهد البطالسة من التآليف والمجلدات التي بلغت في بعض
التقديرات الى 700000 كتاب. وكان بهذه المكتبة المدرسة
العظيمة المشهورة التي تعرف عند العرب برواق الحكمة وفيها
ولدت الفلسفة الافلاطونية الحديثة.

اما العرب فانهم بعد ان وجد لهم كيان سياسي ودولة
مدنية بسبب ما هداهم الله اليه من الاسلام قاموا يجدون في
طلب العلم والمعرفة ويجتهدون في البحث عن كتب الحكمة
والادب. وما مضى جيل على تاسيس الخلافة الاسلامية حتى
كان الخلفاء انفسهم يامرون بترجمة الفلسفة اليونانية ونقل
كتب الاقدمين من الممالك التي فتحوها سواء في الالهيات
والطبيعات والرياضيات والادبيات الى اللغة العربية وتاسيس
المكاتب العمومية واغداق الصلات والجوائز العظيمة على العلماء
والمؤلفين وبناء المدارس لطلبة العلم في سائر انحاء المملكة
الاسلامية المترامية الاطراف.

وقد كثرت الكتب عند العرب كثرة مطلقة لا يمكن
معها لامة ان تقابلهم بمثلها، اذ كان فيهم مؤلفون من كل
الاجناس والملل كالفرس والروم والنبط والسريان والهنود

واليهود والترك والديلم والقبط والفرنج والبربر فضلا عن
العرب انفسهم. وكان ما يكتبه بعض الافراد في النقليات
والعقليات يزيد بكثير على ما تكتبه امة باجمعها في جيل
كامل من تاريخها فمنهم من كتب الف كتاب ومنهم من كتب
خمسمائة وكثيرون جدا كتبوا ثلاثمائة ومائتين وفي هذه
الكتب ما يكون مؤلفا من مائة جزء وخمسين جزءا وعشرين
وعشرة، وبعضها بيدنا لا يزال الآن يحتوي على هذا العدد مما
لا مجال للشك فيه.

وقد اصابته المكتبة العربية نكبات وخطوب تاريخية
مشهورة من احراق واغراق ونهب وسلب بيد الطليبيين في
حروبهم المشهورة وبيد التتار في هجماتهم المخربة على ديار
الاسلام حتى قيل انهم كانوا يردمون الانهار بالكتب ويجتازون
عليها كالجسور.. ومع ذلك فان البقية الباقية منها فيها بلاغ
ومقنع. وحسبكم ان ما عده حاجي خليفة في كتابه كشف
الظنون من اسماء الكتب المعروفة في عصره اعني في القرن
الحادي عشر للهجرة يقرب من 15 الف كتاب من الامهات
والاصول عدا الخواشي والشروح التي لا تعد ولا تحصى.

وكان اول من انشأ مكتبة عامة في الاسلام هو الخليفة
هارون الرشيد او ابنه المامون وكانت هذه المكتبة في بغداد
وتسمى بيت الحكمة ولا تسب عما كان بها من الكتب
والمجلدات في كل المعارف البشرية. ثم اسست بعد ذلك

مكاتب عديدة في بغداد نفسها والبصرة ودمشق والقاهرة وفي
بخارى وسمرقند وخراسان والري وفي قرطبة واشبيلية
وغرناطة وفي مراکش والقيروان وقاس وغيرها.

وكان بخزانة العزيز بالله من خلفاء الفاطميين بمصر
مليون وستمائة ألف كتاب منها نحو 80 نسخة من كتاب
العين للخليل ومنها 20 نسخة من تاريخ الطبرى ومنها 100
نسخة من كتاب الجوهرة لابن دريد مما يدل على انهم كانوا
يلاحظون فائدة الجمهور في تكرير النسخ.

ولما دخل الصليبيون مدينة طرابلس الشام كان فيها
خزانة كتب تحتوي على ثلاثة ملايين مجلد.

واما في الاندلس فقد اشتهر انه كان بمكتبة الحكم بن
الناصر بقرطبة 400000 كتاب وان فهارس الدواوين الشعرية
وحدها بهذه المكتبة كانت 44 فهرسا في كل فهرس عشرون
ورقة، وكان يرسل في طلب الكتب وشرائها الى كل الانحاء
ويكافي العلماء والمؤلفين مكافآت جزيلة فبعث الى ابي الفرج
الاصبغاني الف دينار ذهب ليرسل اليه كتاب الاغانى قبل
اخرجه لبني العباس، وكان ابو الفرج امويا مثله. وكذلك
بعث الى ابي بكر الابهرى الف دينار على شرحه لمختصر
ابن عبد الحكيم.

واقترى بالحكم الرؤساء والاعيان واهل الوجاهة في
قرطبة فتنافسوا في انشاء المكاتب واقتنا الكتب حتى كانت

المكاتب العمومية فيها تعد بالعشرات وأما المكاتب الخاصة
فحدث عنها ولا حرج وربما كان الرجل من العامة وله مكتبة
حافلة في بيته كما يستفاد من حكاية الحضرمي هذه، قال:
«أقمت مرة بقرطبة ولازمت سوق كتبها مدة اترقب فيه
وقوع كتاب كان لي بطلبه اعتنا إلى ان وقع لي وهو بخط
فصيح وتفسير مليح ففرحت به اشد الفرح فجعلت ازيد في
ثمنه فيرجع الي المنادي بالزيادة علي إلى ان بلغ فوق حده
فقلت له يا هذا ارني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلغه إلى
ما لا يساوي قال فاراني شخشا عليه لباس رياسة فدنوت منه
وقلت له اعز الله سيدنا الفقيه ان كان لك غرض في هذا الكتاب
تركته لك فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده فقال لي لست
بفقيه ولا ادري ما فيه ولكني اقمت خزانة كتب واختفلت
فيها لاتجمل بها بين اعيان البلد وبقي فيها موضع يسع هذا
الكتاب فلما رايته حسن الخط جيد التجليد استحسنته ولم ابال
بما ازيد فيه والحمد لله على ما انعم به من الرزق فهو كثير».

قال الحضرمي «فاخرجني وحملني على ان قلت له نعم
لا يكون الرزق كثيرا الا عند مثلك، يعطي الجوز من لاله
اسنان. وانا الذي اعلم ما في هذا الكتاب واطلب الارتفاع به
يكون الرزق عندي قليلا وتحول قلة ما بيدي بيني وبينه، الخ.

ونشير إلى بعض المكاتب المغربية تميميا للفائدة ففي
مراكش اسس يوسف بن عبد المومن مامون الموحدين مكتبة

صاحي بها مكتبة الحكم المشار اليها وجمع لها من الكتب ما كان متفرقا في الخزائن الخاصة والعامة ببلاد المغرب والاندلس حتى اصبحت من اعظم مكاتب الاسلام - وقد اورد في المعجب هذه الحكاية التي قدل على ما كان يبذله في هذا السبيل من الترضيات الكبيرة قال :

« اخبرني ابو محمد عبد الملك الشذوني احد المتحققين بعلمي الطب واحكام النجوم قال كنت في شببتي استعير كتب هذه الصناعة يعني صناعة هذه الاحكام من رجل كان عندنا بمدينة اشبيلية اسمه يوسف يكنى ابا الحجاج يعرف بالمازني بتخفيف الراء كانت عنده جملة كبيرة وقعت الى ابيه في ايام الفتنة بالاندلس فكان يعيرني اياها في غرائر اعمل غرارة واجي بغرارة من كثرتها عنده فاخبرني في بعض الايام انه عدم تلك الكتب بجملتها فسألته عن السبب الموجب لذلك فاسر الي ان خبرها انهى الى امير المؤمنين فارسل الى داري وانا في الديوان لا علم عندي بذلك وكان الذي ارسل كافور الحضي مع جماعة من العبيد الخاصة وامره ان لا يروع احدا من اهل الدار وان لا يأخذ سوى الكتب، وتوعده والذين معه اشد الوعيد ان نقص اهل البيت ابرة فما فوقها فاخبرت بذلك وانا في الديوان فظننته يريد استصفا اموالي فركبت وما معي عقلي حتى اتيت منزلي فاذا الحضي كافور الحاجب واقف على الباب والكتب تخرج اليه فلما راني وتبين ذعري

قال لا بأس عليك واخبرني ان امير المؤمنين يسلم علي وانه
ذكرني بخير ولم يزل يبسطني حتى زال ما في نفسي ثم قال
لي اهل بيتك هل راعهم اخذ او نقصهم شيء من متاعهم فسألتهم
فقالوا لم يرعنا احد ولم ينقصنا شيء. جاء ابو المسك حتى استأذن
علينا ثلاث مرات فاخلينا له الطريق ودخل هو بنفسه الى
خزانة الكتب فامر باخراجها فلما سمعت هذا القول منهم زال
ما كان في نفسي من الروع. وولوه بعد اخذهم هذه الكتب
منه ولاية ضخمة ما كان يحدث بها نفسه.

وهذا نفسه هو ما فعله الحكومات الراقية اليوم في نزع
مثل هذه الذخائر من ايدي العامة محافظة على تراث الامة
وصونا له من الضياع.

وكان لخزانة الكتب عند الموحدين ولاية خاصة لا يولاها
الا خاصة اهل العلم لان امرها لديهم عظيم. وممن ولي النظر
فيها ايام يوسف بن عبد المومن القاضي ابو محمد بن الصقر
وكان من احسن العلماء نظرا في كثير من الفنون فقام عليها
اتم مقام واستنسخ لها كثيرا من المجلدات وكان كلما بالغ
في النصيحة والخدمة كلما بالغوا له في العطايا والصلوات.

ولما كان الناس على دين ملوكهم فان رجال الدولة
والكبار وذوي الحيشيات كانوا يتنافسون في هذا السبيل. وقل
ان تجد منهم من ليس له في بيته مكتبة عامرة تحتوي على
عدد كبير من المجلدات. وقد ذكر عن القاضي عيسى بن

أبي حجاج بن الملجوم - وهو الملجوم من بيوتات فاس القديمة -
 أنه ابتاع أصل ابن عبد البر من سنن أبي داود بخمسة آلاف
 دينار فهل سمع بمثل هذا الثمن لكتاب متداول يقع في مجلد؟
 الحقيقة أن هذا الفعل أربى على فعل الحكم في شراء الأغاني
 من مؤلفها أبي الفرج. وكان للامام عبد الرحمن بن الملجوم
 خزانة كتب بيعت خرمها أي أوراقها المتخرقة بعد وفاته بستة
 آلاف دينار فإذا كان هذا ثمن الخرم فما ثمن الكتب من أصلها؟
 وحكى الانصاري في تاريخ سبتة أن عدد الخزائن بها
 كان اثنين وستين. كان منها في القديم بدور الأكابر وذوي
 الأقدار خمس وأربعون خزانة. وفي زمانه كان منها سبع عشرة
 خزانة تسع بدار الفقهاء والصدور وثماني موقفة على طلاب
 العلم. أقدمها الخزانة الشهيرة ذات الأصول العتيقة والمؤلفات
 الغريبة خزانة أبي الحسن الشاري التي بالمدرسة المنسوبة إليه
 التي ابتدأها من ماله وهي أول خزانة وقفت بالمغرب على
 أهل العلم. وأعظمها إحدى خزائني الجامع العتيق الكائنة
 بشرقي صحنه وبازاء باب الشواشين أحد أبوابه وهي في الكثرة
 بحيث لم يشذ منها فن من الفنون ولا نوع من المعارف أصلا
 مع تعدد مصنقات ذلك الفن وكثرة دواوينه. الخ

ولما جاء بنو مريت أسسوا خزانة القرويين العامة
 وشحنوها بنقائس الكتب والذخائر وما زال الملوك والمحسنون
 من الشعب يقفون عليها المؤلفات والتصانيف البديعة إلى أن

صارت من اعظم المكاتب شهرة في العالم الاسلامي كله. وبها كثير من الكتب الموقوفة بخطوط مؤلفيها انفسهم كتاريخ ابن خلدون وغيره ولولا ان الايدي تلاعبت بكثير من ذخائرها لكانت اليوم في طليعة مكاتب العالم غنى بالنفائس والنوادر. وهناك مكاتب اخري لا تخلو من نفائس وذخائر كخزانة جامع ابن يوسف بمراكش وهي جامعة وخزانة الجامع الاعظم بمكناس ويغلب عليها كتب الفقه كالمدونة وشرحها وخزانة الجامع الاعظم بتازة وبها نحو 400 مجلد في التفسير والحديث وما الى ذلك ومن مكاتب الافراد خزانة القاضي مولاي عبد الهادي بفاس تحتوي على ذخائر منها تاريخ للمغرب قبل الاسلام في مجلد على ما قيل والخزانة الفاسية بها نحو 4000 مجلد وخاصة كتب السادة الفاسيين. والخزانة السودية بها نحو 3000 مجلد والخزانة الكتانية بها على قول صاحبها نحو 14 الف مجلد وهي اكثر نفائس وهذه كلها بفاس.

والخزانة الزيدانية بمكناس بها نحو 5 آلاف مجلد ومجموعة كبيرة من الظواهر والوثائق المخزنية وخزانة وزان التي انتفع بها الفقيه الرهوني في تأليف حاشيته المشهورة ويغلب عليها كتب الفقه. وخزانة الصويرة من تحبيس السلطان سيدي محمد ابن عبد الله العلوي بها نسخة من المدارك يقرب تاريخها من عهد المؤلف. وخزانة ابنزو بها نحو الف مجلد مخطوط وخزانة "ايت. اعياش وبها كثير من النفائس كتاريخ المقرري لعلماء

مراكش وفاس وغيره، وخرافة أميت يوسي وهي مثل سابقها
والخرافة الناصرية بتجروت من أغني الخرافن المغربية قيل
أن بها من شروح البردة والهمزية فقط أكثر من 800 شرح
إلى غير ذلك مما لو تتبعناه لطل بنا الحديث.

وهذا مما يدل على فضع الفكر المغربي في الماضي
واختصار القراءة وبالتالي العلم والمعرفة في البوادي كما في
الحواضر وشدة الإقبال على الطلب والتحصيل من سائر طبقات
الشعب. فإذا رأينا ما كان لاسلافنا من العناية بتثقيف عقولهم
وتوسيع دائرة معلوماتهم بالمطالعة وأنواع الدراسة، على قلية
الكتب وصعوبة اقتنائها في عصرهم وكثرتها وسهولة ذلك في
عصرنا مع ما نحن عليه من الزهد فيها والانصراف عنها علمنا
سر تقدمهم وتأخرنا وارتقائهم وانحطاطنا فإلى الكتاب وإلى
المكتبة وليحي الكتاب ولتحي المكتبة!..



المتنبى في رأي طه حسين



لم اقرأ - فيما قرأت عن المتنبى - لكاتب قديم او حديث من رأي كان اشد زراية وابلغ تنقيصا لشخصية الشاعر ونفسيته الحساسة من هذا الرأي الذي يجمله الدكتور طه حسين في بضعة سطور بعد ان يمهّد له السبيل بالكلام على مصر وكافور وقضية المتنبى معهما. ودونك ما يقوله الدكتور في الفصل الثالث من الكتاب الرابع من مؤلفه (مع المتنبى) ص: 589:

«والذي اريد ان اصل اليه من هذا الحديث الطويل هو ان المتنبى قد ظن بنفسه غير ما كانت عليه، وما اكثر ما يخدع الناس عن انفسهم. ولكن الغريب ان المتنبى لم يخدع نفسه وحدها وانما خدع معها كثيرا جدا من الناس فظنوا به الفلسفة وليس هو من الفلسفة في شيء. وظنوا به الحرية والكرامة واما الضيم وليس هو من هذا كله في شيء. وانما هو رجل من اهل زمانه لم يمتاز منهم باخلاقه وانما امتاز منهم بلسانه كما كان يمتاز غيره من الكتاب والشعراء»

فهل صحيح ان المتنبى لم يمتاز بشيء عن غيره من الكتاب والشعراء وانما مزيته الكلام كغيره من الكتاب والشعراء؟ او ان لسان الوطنية المصرية والعصية الاقليمية هو

المكلم حينئذ والدكتور طه حسين قد تقمص جانب الباحث العايب ليلا يشهد الناس على جده في القول ولا سيما مع اصطناع الغرض ونبد النزاهة جانبا؟...

وأول ما في هذا الكلام من الخطل انه يغمز سائر الكتاب والشعراء بالتجرد من الفضائل النفسية والمحاسن الخلقية ويقصرهم على صناعة الكلام وشقشقة اللسان فيجعل المتنبي وسائر الادباء - والدكتور منهم بلا شك - انما يمتازون عن اهل زمانهم بالسنتهم ولا حظ لهم في الخلق أو الفضيلة ولا نصيب لهم من الفلسفة أو التفكير. وهل يوافق على هذا احد اوتي شيئا من التمييز او كان على جانب من الاطلاع؟

فمن هم وضعة القوانين الخلقية والبدائير التربوية في كل عصر واقليم وفي كل امة وجيل غير من يحمل عليهم الدكتور هذه الحملة الشعواء من الكتاب والشعراء؟

بلى ! ومن هم المفكرون الذين يسبقون عصورهم ويرتجلون النظريات الفلسفية قبل اباذها ويحللون المشاعر الانسانية ويشرحون دخائل النفوس غير هذا الصنف الملهم من الناس اعني الكتاب والشعراء؟

ولله در شوقي اذ يقول: اتم الناس ايها الشعراء !
اما انا لا نعلم الدكتور الفاضل هذا وانه ليعلمه ويعلمه احسن من غيره، ولكننا نلقن من لم ينضج من القراءة وننبه من يخدع من الشبان، واما بخصوص الدفاع عن المتنبي فسوف

تدع الكلمة للدكتور نفسه قنراه وهو ينقض رايه في الشاعر
ويثبت له كل ما نفاه عنه من الفضائل ويراجع الانصاف ويسمو
به الى اعلى المراتب، وهكذا يرد طه حسين على طه حسين
ابلق رد ويكفيها عن غير قصد مؤونة ابطال كلامه والاحتجاج
عليه بالحجج التي مهما تكن قوية فلن تبلغ قوة اعترافه هو
واقاراره على نفسه.

واذا تأملنا كلام الدكتور في تلك الفقرة وما قبلها وما
بعدها، رأينا يتلخص في ثلاث نقاط: انكار ان يكون
للمتنبي فلسفة بل شي من الفلسفة. انكار اخص ما امتاز به
المتنبي من الاخلاق كالحرية والاباء الكرامة. ومساواة المتنبي
للشعراء عموما في مزية القول المجردة بحيث لم يفضلهم بشي
وللرد على الدكتور في النقطة الاولى نأتي بقوله
ص 86 وقد انشد للمتنبي

يدفن بعضنا بعضا ويمشي اواخرنا على هام الاوالي
وكم عين مقبلة النواحي كحيل بالجنادل والرمال
ونصه : وما اراني في حاجة الى ان انبهك الى ان هذين
البيتين قد اثرا في التشاؤم العلائي وما نشأ عنه من فلسفة
تأثيرا بعيدا،

وقوله ص 88 : واما البيتان الاخران فقد وثب فيهما الى
معنى فلسفي رائع فتح به لابي العلاء بابا من الشعر اتى فيه

بالاعاجيب واكبر الظن ان المتنبي قد ظفر بهذا المعنى في
بعض قراءته الفلسفية وذلك حيث يقول:

اذا ما ناملت الزمان وصرفه تيقنت ان الموت ضرب من القتل
وما الدهر اهل ان تؤمل عنده حياة وان يشتاقي فيه الى النسل،
وقوله ص 389 «ومع ذلك فما اريد ان ادع هذه القصيدة

دون ان اثبت هذين البيتين اللذين فتح بهما المتنبي ايضا بابا
من ابواب الفلسفة المحزونة المتشائمة لشعر ابي العلاء:

سبقنا الى الدنيا فلو عاش اهلها منعنا بها من جيئة وذهوب
تملكها الآتي تملك سالب وفارقها الماضي فراق سليب،
وقوله ص 391 «ولكن لا ندع هذه القصيدة... دون

ان نرى هذه الابيات التي تصور احسن تصوير علم المتنبي
بطبائع الناس وحرصهم على الحياة وتفتح لابي العلاء بابا من
ابواب الفلسفة والتفكير. وذلك قوله:

ولذيذ الحياة انفس في النفس واشهى من ان يمل واحلى
واذا الشيخ قال اه فما مل حياة وانما الضعف ملا،
وقوله ص 397 «ثم ينتهي المتنبي بهذه القصيدة الى فلسفة

مظلمة حزينة اقل ما يقال فيها انها تصور شكه في خلود النفس
وانحرافه بهذا الشك عن طريق المسلمين واحساسه التعب من
هذا الشك والارتياب وتفتح بابا فلسفيا آخر لابي العلاء.
واحب ان تلاحظ ان المتنبي يصطنع في هذه الابيات لغة
النظار واصحاب الكلام اكبر مما يصطنع لغة الشعراء وسيقلده

أبو العلاء في هذا النحو من التعبير كما يذهب مذهبه في
هذا النحو من التفكير، وأحب أن لاحظ آخر الأمر أن
البيت الذي يختم المتنبي به قصيدته صورة رائعة مظلمة لليأس
الفلسفي المهلك الذي يودن بالشيخوخة وما يتبعها من العجز
والاعياء، وهذا كله حيث يقول:

تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم الأعلى شجب والخلف في الشجب
فقل تخلص نفس المرء سالمة وقيل تشرك جسم المرء في العطب
ومن تفكر في الدنيا ومهجته أقامه الفكر بين العجز والتعب،
وقوله ص 604 ثم انظر آخر الأمر إلى هذه الأبيات التي
نصور اذعانه للقضا وصبره على المحن، ولكنها تنتهي به إلى
أنه هي اليأس القائم الذي ليس وراءه أمل ولا رجاء:

فإن امرض فما مرض اضطباري وإن أحمم فما حم اعتزامي
وإن أسلم فما أبقي ولكن سلمت من الحمام إلى الحمام
تمتع من سهاد أو رقاد ولا قامل كرى تحت الرجام
فإن لثالث الحالين معنى سوى معنى انتباهك والمنام
والمتنبي في هذه الأبيات الأخيرة يبلغ الفلسفة العليا
ويرتفع عن نفسه وسجنه ومره وما يحيط به من الأحداث إلى
التفكير في طبيعة الموت وما يكون وراء القبر... الخ.

ونكتفي بهذا القدر من كلام الدكتور الذي أثبت فيه
للمتنبي فلسفة وفلسفة عليا وعلمًا بطبائع الناس وتأثيرها قويًا
في فيلسوف المعرفة، فإنا لنبشعر بشعرى أنسي الدكتور كل هذا

لما قال ما قال في ص 539 أم كان هو أيضا ممن خدعه
المتنبى ولم يفتن لخداعه الا بعد ان سجل هذه الاعترافات؟...

اما النقطة الثانية فهذا كلامه الصريح في ابطالها، قال ص
597: «ولكن المتنبى قد تغنى خزنه والمه وما احاط بنفسه
من الكوارث والخطوب في شعر لم يقصد به الى مدح ولا هجاء،
وانما قصد به الى الغناء وحده. كان طائرا تعود الهوا' الطلق
والفضاء العريض، يرتفع في السماء ما اتاحت له قوته العنيفة
ان يرتفع، فاذا اراد الراحة لم يقع الا على الشواهد من قمم
الجبال، فاذا هو الآن سجين في قفص ضيق لعله من الذهب
المرصع بالوان الجوهر، ولكنه قفص على كل حال، وكان
جوادا مرحا فرحا حياته كلها في العدو والغزو، ولذته كلها
في المرح والنشاط، لا يطمئن ولا يرضى الا اذا مضى امامه
في البيد والمهامه، مستمتعا بحر النهار وبرد الليل او اقتحم
الصعاب والعقاب الى العدو ثملا بنشوة الظفر او ألم الهزيمة،
فاذا هو الآن مرثبط في القسطنطينية عند قصر كافور، قد مضى
الشكيم حتى مل مضغ الشكيم وقد افنى مرجه ونشاطه في هذه
الحركات العنيفة المرحلة التي ياتيها الجواد الاصيل في الرباط
لا تقدمه ولا تؤخره فاذا طالت عليه اضنته وعنته وردته الى
الخمود والفتور».

فهل بعد هذا الكلام الجميل في تصوير حربة المتنبى

وشغفه بها، وحنينه اليها دليل على اثبات ما نقاه الدكتور من
ذلك وتجاهله وانكره انكارا كلياً؟
ودونك عبارات اخرى له في هذا الصدد؛ قال بعد هذه
الابيات ص 569:

ومن هوى كل من ليست مموهة
تركك لون مشيبي غير مخضوب
ومن هوى الصدق في قلبي وعادته
رغبت عن شعر في الرأس مكذوب
ليت الحوادث باعنتي الذي اخذت
مني بحلمي الذي اعطت وتجريبي
فما الحداثة من حلم بمائعة

قد يوجد الحلم في الشبان والشيب
«فهذا الكلام من اروع الشعر واجمله، يعجبني فيه هذا
الانتقال من اثار الجمال البدوي الصريح الذي لم يصنع ولم
يتكلف الى اثار الشيب الواضح الذي لا يخفيه الخضاب. ثم
يعجبني ايضاً عدول الشاعر الى الحق واعترافه بانه يحتمل
المشيب كارها له وراغبا عنه بعد ان صرح بانه لم يرد ان
يخفيه بالخضاب. فهو يؤثر الصراحة على النفاق وهو يؤثر
الصدق على الكذب. وهو يؤثر ان يكون شجاعاً تؤذيه الشجاعة
وتعنيه على ان يكون منافقاً يضر نفسه بالآمال والاهام»

وقال معلقاً على قصيدة (عذيري من عذاري) ص 261:

فأنت ترى في هذه القصيدة اعترافه بالخيبة واستسلامه للمحنة و
وضيق نفسه بما يلقي من الشر ويأسه من تحقيق الأمل
ولكنه مع ذلك حفيظ على كرامته، حريص على عزته، لا يريد
أن ينزل عن شرفه مهما تكن الأحداث،

وقال فيما كتبه على قصيدة (لا افتخار إلا من لا يضام)
ص 261: «والشيء الثاني الذي تدل عليه هذه القصيدة أن
نفس الشاعر قد أوديت حقاً بهذه المحنة الجديدة، وأوديت في
اعماقها. فالشاعر محزون، وربما كانت هذه الكلمة أضعف
من أن تؤدي ما كان يجد الشاعر من الألم بعد خيبة أمله في
يذر، وأن شئت فقل: أن الشاعر في هذا الوقت كان يجمع
في نفسه بين خصلتين متناقضتين أو بين خصال متناقضة: فهو
قد أحس الذل وانكسرت له نفسه، واحتمل ما لم يتعود أن
يحتمل من الضيم، وهو يجد لذلك لذعا اليما لا يكاد يطيقه ثم
هو يحس كأن نفسه الأولى قد ثابت إليه وكان عزمه القديم
قد راجعه، وكان شيئاً يناجيه من أعماق شبابه الماضي يدفعه
إلى أن يثور أيما للضيم نايماً عن الذين أرادوا أن يضيّموه،
وهو من أجل ذلك يحس كبر نفسه وعزتها وارتفاعها عن
صغائر الأمور».

فها أنت ترى أن محل ما نفاه الدكتور عن المتنبي من
الفضائل الخلقية في تلك الفقرة الموجزة قد عاد فائتته له وحلاه
به في غير موضع من كتابه بإسطة عبارة واحسن وصف، وزاد

على ذلك اشياء اخرى مما لم يكن ذكره في تلك الفقرة، ولو
تبعنا كلامه في هذا السبيل لطل بنا الامر وكفاك من
القلادة ما احاط بالعنق.

واما النقطة الثالثة وهي مساواة المتنبي للشعراء عموما
وعدم امتيازه عنهم بشيء فلا ندرى ما يأخذ وما نذر من كلام
الدكتور في ابطالها والكتاب كله اشادة بمواهبه الفنية
ومميزاته العديدة التي لا يشاركه فيها احد من شعراء العربية
سواء القدماء منهم والمحدثون؟ وقد علم ما يمتاز به اسلوب
الدكتور في الكتابة من الاطناب الكثير وتكرار الجمل واعادة
الكليات، فهذا يمنعنا من كثرة نقل كلامه خوف التطويل
ولكنه في الوقت نفسه يكون حجة واي حجة على اثبات ما
نذهب اليه من ان الدكتور في تنقيصه للمتنبي انما كانت
صادرا عن عصبية اقليمية ونعرة قومية، فلما جاوز المحل الذي
اوحى اليه شيطانه فيه بكتابة تلك الكلمة المغرضة رجع الى
رأسه وانصف الرجل واعطاه حقه من التقدير والاعجاب في
كلمات بليغة تفيد بتكرارها واطنائها تأكيد لما يقول
ونحقيقا لما يرتقي.

وهذه بعض اقواله في هذا المنحى: قال في ص 311:
«وليس من الاسراف في شيء ان يقال ان المتنبي في سيف
الدولة ديوانا خاصا يمكن ان يستقل بنفسه. وهو ان جمع في
سفر مستقل لم يكن من اجمل شعر المتنبي واروعه واحقه

بالبقاء. بل من اجمل الشعر العربي كله واروعه واحقه بالبقاء
وقال في ص 319 «وخطة ثالثة يمتاز بها شعر المتنبي

في هذا الطور وهي انه قد استطاع لا ان ينشي فنا جديدا
من فنون الشعر، بل ان يتمي فنا من هذه الفنون ويقويه،
ويكثر القول الجيد فيه، حتى يمنحه من الامتياز والاستقلال ما
يجعله فنا قائما بفسنه. اريد بهذا الفن وصف الجهاد بين المسلمين
والروم، ثم قال بعد كلام طويل من هذا المعنى اكثره على
طريقة الدكتور مما يؤكد بعضه بعضا، ص 321 :

«ومن هنا تجد في وصف المتنبي لحروب سيف الدولة
عنه الثغور فتوة عربية اجتماعية ان صح هذا التعبير. وترى
هذه الفتوة العربية الاجتماعية تشيع في وصف المتنبي حصة
قوية مضطربة شديدة الاضطراب، كأنها الكهرباء لا تكاد تظل
بهذا الشعر حتى ينتقل اليك ما صور فيه المتنبي من حياة
هؤلاء المجاهدين، وما كان يملؤها من نشاط فيه الامل
والابتهاج وفيه الاكتئاب والابتئاس، وفيه الثقة بالنفس والایمان
بالحق والارتفاع عن صفائر الامور دائما.

ونحن نستطيع ان نفهم عجز الاستاذ بلاشير عن ان
يذوق جمال هذا الفن من شعر المتنبي، وان فعله وان لم يكن
في حاجة الى هذا التعليل. فجنسية الاستاذ واختلاف مزاجه
وطبعه واخشى ان اذكر دينه ايضا، كل هذا يجعل تأثيره
بهذا النحو من شعر المتنبي قليلا ضئيلا. وربما جعله تأثرا

عكسيا وربما دفع الأستاذ الى الغض من هذا الشعر، والازدراء له. اما نحن فان هذا الشعر يثير في نفوسنا عواطف اخرى ويستتبع فيها حركات لا تنتظر من نفس الأستاذ بلاشير وامثاله من العلماء الاوربيين،

فمرجى للمتنبي الذي استطاع ان يؤثر في دكتورنا المحترم، كل هذا التأثير ويجعله يشعر بشعور المسلمين وينعي على العلماء الاوربيين عدم الاحساس بجمال شعره في وصف الجهاد المقدس مما نخشى ان يؤدي بنا الى القول ان القرآن الكريم على بلاغته واعجازه لم يستطع ان يؤثر في الدكتور مثل هذا التأثير لما كان يكتب تأليفه العظيم (في الشعر الجاهلي) فقال ما قال وسجل ما سجل. ولكن لعل الدكتور تاب لله توبة نصوحا مثل توبة المتنبي من القرمطية التي الصقها به الدكتور الصاقا. وان كان هو لم يرض من الشاعر هذه التوبة وعدها من ذنوبه التي لا تغفر!

وهاك اقوالا اخرى للدكتور في الموضوع. قال ص 328: «وخصلة رابعة يمتاز بها شعر المتنبي في هذا الطور ايضا وهي انه قد وثب بشعره حيث اتصل بسيف الدولة وثبته الاخيرة التي رفعت الى الارجح وضمنت له مكانه بين الفحول من شعراء العربية... لانه ملك ناحية الفن حقا، وجعل يتصرف بالفاظه ومعانيه كما كان يتصرف بها الفحول، واثبت شخصيته قوية واضحة ممتازة من غيرها، واصبح مرآة لنفسه لا لابي

ثمام ولا للبحثري ، وأصبحنا نستطيع ان نقرأ القصيدة من شعره فنقول : انها قصيدته هو لم يتأثر بها هذا الشاعر او ذاك .

وابلغ من هذا قوله في القصيدة الاسلامية التي مطلعها : ليالي
بعد الظاعنين شكول ، ص 443 : «المتنبي يبدأ القصيدة بنفسه
حزينا مقتخرا، ويختم القصيدة بنفسه مبتهجا منتصرا، ويمنح
اكثر القصيدة وخير ما فيها لا لسيف الدولة وحده، بل له
ولجماعة المجاهدين معه في سبيل الله الذائدين عن حوزة
الاسلام وحسب العرب، ولجماعات اخرى من المسلمين لاهية
عن الجد ساهية عن المجد منصرفة الى المخازي والآثام،
فالشاعر مغن ، والشاعر مادح ، والشاعر قاص . والشاعر هاج ،
والشاعر مفاخر متحمس ، والشاعر يجمع اكثر فنون الشعر في
هذه القصيدة التي لم تسرف في الطول» .

فانظر كيف جمع المتنبي اكثر فنون الشعر حتى القصص
الذي هو من اندر النادر في الشعر العربي ، فهل هذا لا يعد
امتيازا بين شعراء العربية على العموم؟

واختم بما قاله الدكتور متحدثا عن نفسه في انفعال
عظيم وتأثر لا يوصف بالمتنبي وشعره ص 628 : «واقراً هذه
الابيات التي لا اعرف اجمل منها ولا اصلح للغناء:
لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدي

شيئا تميمه عين ولا جيد
يا ساقبي أخمر في كؤوسكما
ام في كؤوسكما هم ونسهد

أصخرة أنا مالي لا تحركني

هاذي المدام ولا هاذي الاغاريد

إذا أردت كميت اللون صافية

وجدتها وحبيب النفس مفقود

أما إذا فمفتون بهذه الابيات وبالثلاثة الاخيرة منها خاصة:

وما اعرف ان وجدت في كل ما قرأت من الشعر العربي ما يشبهها جمالا وروعة، ونفاذا الى القلب وتأثيرا في النفس ومهما احاول فلن استطيع تصوير ما يملأ نفسي من الحزن حين اسمع تحدثه الى ساقبيه وسؤاله اياهما عما في كؤوسهما اخمر هو ام هم وتسهيده؟

ومهما اقل قلب استطيع ان اصور اعجابي بهذا البيت الذي يسأل فيه عن نفسه، ما له لا يطرب للخمر ولا يطرب للفناء. وما اعرف بيتا يصور السكون وجمود النفس وموت القلب خيرا من هذا البيت، وهو على تصويره الرائع للسكون والجمود والموت من اشد الشعر تحريكا للنفوس واثارة للظرب الحزين في القلوب.

ثم انظر الى هذه الحسرة التي يضيح بها البيت الاخير صيحة اليأس والقنوط، لانه يتغنى المدام فيظفر بها ولاكنه وحيد قد فقد حبيب نفسه، فهو لا يستطيع ان يلهو وحده ولا ان ينعم بلذة وحيداء.

الى هنا تنتهى مرعين من هذه الاتقال التي أفدنا منها
تزييف ما زعمه الدكتور عن المتنبي في تلك الفقرة الغريبة ،
وافدنا منها ايضا تعريفا بفضائل المتنبي ومزاياه وشاعريته البليغة
وفنه البديع .

والحق أن الدكتور في تلك الكلمة السوداء عن المتنبي
كان في حالة غضب وتوتر عصب من قراءة هجو المتنبي
«للاستاذ كافور المصري» وللغضب سلطان على النفوس لا يقهر
ولذا فان الحاكم مطالب شرعا ان لا يفصل بين الخصوم في
ساعة الغضب . انما الدكتور الفاضل لم يعبأ كما هو شأنه بهذا
التقليد ولم يتقيد بذلك الواجب فحكم حكما مسمطا على
المتنبي وازدراه وهضم حقه وكاد ان يعدمه من الوجود . وذلك
برغم قوله في ص 618: «وما ينبغي ان نحجب الشعراء او نبغضهم
لانهم مدحوا او هجوا . أو لانهم مدحونا نحن او هجونا . وانما
ينبغي ان نعترف الشعراء او فنكرهم لانهم مدحوا فاحسنوا المدح
وهجوا فاجادوا الهجاء» وهذا رأي صحيح وان كان الدكتور
لم يعمل به مع الاسف .

والآن يخيل لي اني دأبت حضرة الدكتور بهذه الكلمات
كما دأب هو المتنبي بكتابه اكثر مما دافعت عن المتنبي
ومحصت الزور الذي قيل فيه ، والا فلا حاجة بالمتنبي الى هذا
الدفاع وهذا التمحيص وهو عند الدكتور نفسه في غير تلك
الفلة بالمكان الذي رايت وعند الادباء جميعا ذلك الشاعر الذي
ملا الدنيا وشغل الناس .

وبما أحسن ما قال الدكتور في كلمته الختامية في نفس كتاب (مع المتنبي) ص 706 وهو : «وانما أريد ان لاحظ ان هذا الكتاب ان صور شيئاً فهو خليق ان يصورني انا في بعض لحظات الحياة اثناء الصيف الماضي، أكثر مما يصور المتنبي . وانه لمن الغرور ان يقرأ أحداً شعر الشاعر او نثر الناثر حتى اذا امتلأت نفسه بما قرأ او بالعواطف والخواطر التي يثيرها فيها ما قرأ، فاملئ هذا او سجله في كتاب، ظن انه صور الشاعر كما كان، او درسه كما ينبغي ان يدرس، على حين انه لم يصور الا نفسه ، ولم يعرض على الناس الا ما اضطرب فيه من الخواطر والآراء» .



كتاب التصوف الاسلامي

للدكتور زكي مبارك

هذا الكتاب طالما قرأت عنه وسمعت التنبؤ به ولاكن
من لدن مؤلفه حضرة الدكتور زكي مبارك الذي قلت عنه منذ
عشر سنوات انه ليس ممن يعمل بقول الشاعر:

ويسى* بالاحسان ظننا لاكن هو بآبئه وبشعره مفتون

والحق اني تشوفت اليه وحرصت جهدي على اقتنائه، لاكن
ظروف الحرب القاسية حالت بيني وبين الحصول عليه والتمتع
بالانقطاع اليه مدة من زمن، حتى اعارني اياه صديق عزيز في
هذه الايام فلفت نظري بضخامته وكبر حجمه مع كونه في
جزأين اثنين، لاني لم اكن أقصده كذلك، ثم لم البث ان
انسللت من مشاغلي وعكفت عليه فقرأته في فترات متلاحقة
لاني لم اعد املك امري معه حتى اتممته، اذ واجهت منه كتابا
ممتعا حقا، وبحوثا طويلة عريضة يزيد بها سحر البيان وسحر
الفصاحة لذة واعجابا.

وهل ينكر احد بلاغة الدكتور مبارك وجمال أسلوبه
الكتابي، بل شدة تأثيره وقوة حساسيته التي تعدى قارئه فيصير
يشعر بشعوره ويحرص حرصه على اثبات هذه النظرية وتزييف
تلك ؟ .

وهل نغير الدكتور مبارك تلك المقدرة البيانية والعارضة
الكتابية التي يمزج فيها بين الحقيقة والخيال والجد والهزل
والتجرد والهوى فيأتي أسلوبه مشرقاً جميلاً يجيش بالروعة
والفتون ويفيض بالحسن والاحسان؟.

أما أنه لكاتب عبقرى وأمام من أئمة البيان أخضع اليراع لحكمه
فهو يجري على حسب هواه، لا يجمع إلا إذا أرخى له العنان
ويسلس في المكان الذى لو ترك لنفسه لجمع وأظهر ما أمتاز
به هو زجه بنفسه في كل مباحثه حيث يُسبغ عليها ظلاً من
شخصيته القوية بما تشتمل عليه من عواطف وميول وأغراض
واهواء، لا يكتف شياً من ذلك أبداً كما يفعل غيره من الباحثين
فهو ذاتي في كل كتابته وفي كتابته الموضوعية كما في الانشائية.
وأنا وإن كنا لا نجهل مزية التجرد في البحث فإننا
نحب من الدكتور مبارك طريقته هذه التي خرج بها على
مواضع الباحثين وهو لا يزال يعد منهم، وما ذلك إلا للباقة
وحسن تصرفه في أساليب الكلام، على إذا نستكره منه
افراطه في التحدث عن نفسه والتناول بآثار قلمه بطريقة
بهلوانية لا يتحملها أشد الناس اغصاء بل اعجاباً به. ولعل هذا
هو السبب فى تحامل الكثير من الكتاب عليه: وفى كتاب
التصوف الاسلامي شواهد كثيرة على ذلك. منها مسألة وحدة
الوجود التي طنطن كثيراً بأنه شرحها شرحاً لم يسبق به. وما
أظنه اقتنع هو نفسه بذلك الشرح!

ثم اننا نلاحظ ان هذا الكتاب فاقد التنظيم لم يضع له الدكتور تصميمًا اوليًا يسير عليه وانما هو جملة مباحث مستقلة كتبت في مناسبات مختلفة ، ثم ضم بعضها الى بعض وكون منها الكتاب ، بدليل تكرار بعض المسائل وتتميم بعض الفصول التي تقدمت في الجزء الاول - في الجزء الثاني .

ولا تغفل الاشارة الى ان الدكتور لم يستعن في كتابه بشيء من المصادر الاجنبية الا قليلا جدا ، الامر الذي كان يزيد كتابه طرافة وقيمة . خصوصا وان لكبار الفلاسفة والمفكرين الاوربيين آراء في التصوف الاسلامي تختلف بحسب اهواء ونزعات اصحابها . فمنها النزيه الذي رفع من قيمة التفكير الاسلامي في هذا الباب ، فكان يحق له ان يعتضد به ويطلع قراءه عليه ، ومنها المغرض الذي كان عليه ان يناقشه ويرده الى صوابه بتلك الروح التي عهدنا منها الغيرة على الحق والانتصاف للعروبة والاسلام في كثير من المواطن .

وقبل ان نختم كلمتنا هذه نشير الى بعض العفوات التي استرعت انظارنا اثنا الالمامة العجلى التي الممناها بالكتاب لان الدكتور نفسه ممن يحب تتبع امثالها في كلام غيره . وان لنا سنقتصر منها على ما لا يحتاج الى بسط موضوعه ولا فرش موضعه .

وذلك مثل ما جاء في صفحة 137 جز اول عند الكلام على الحكم العطائية من قوله « وظفرت بعدة شروح اشهرها

شرح الرندي وشرح الشرقاوي ، وهذه الشجرة بالنسبة الى الشرقاوي لا تصح ، والا فإين ذهب زروق الذي شرحها بأكثر من عشرين شرحا وكلها معتمدة عند الصوفية فهما وذوقا وتنزيلا وتطبيقا وكثير غيره ممن لا يجي شرح الشرقاوي بالقياس اليهم شيئا مذكورا .

ثم الرندي بضم الراء نسبة الى رندة بضمها لا بفتحها كما ثبت عند الدكتور وهي مدينة بالاندلس معروفة ، وهو محمد ابن عباد امام جامع القرويين وخطيبها المشهور ولا جدال في ان شرحه من اشهر الشروح بل اشهرها على الاطلاق .

وجاء في ص 387 ج ل : « وكان النساء في القرن العاشر يطن شعورهن ، وكنت احسب ذلك من بدع هذه الايام » وكيف يحسب الدكتور ذلك من بدع العصر او القرن العاشر ، وقد كان معروفا عند العرب من زمن الجاهلية ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عنه في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم وأئمة السنن : (لعن الله الواصلة والمستوصلة) ؟

وقال الدكتور في ص 352 : « واحراق البخور لا يحسنه كل انسان ، وانما هو فن يجيده «المغرب» وحده » . ولهذا كان للغاربة سوق رائجة في هذه البلاد يعني مصر - ومنهم وحدهم تطلب الكنوز وعليهم المعتمد في كتابة الاحجية لجذب الاليف الى الاليف ، وفي «العباءة البيضاء» اسرار لا يدركها الا الراسخون في علم الغيب ، هذا كلامه ونحن نقول نعم ! ان المغرب يجيد

ذلك، ولكن عند الاغنياء والنسطة الذين تنطلي عليهم الحيل
ويعمي الطمع ابصارهم، ولذلك له سوق رائجة في بعض البلاد
كاسدة في غيرها من البلاد التي انعم الله عليها بالذكاء والفهم.
ولا نقول ان تلك البلاد هي مصر، فمصر عزيزة علينا وادبنا
يمنعنا من ذمها بالحق او الباطل، ولكن مقتضى هذا الكلام
الذي ليس الدكتور فيه باول يجعل مصر كذلك، بل انه ينص
عليه نصا بعد ذلك بصفحات قلائل حيث يقول في ص 368:
«واكثر اهل مصر لا يعقلون».

والواقع انه كثير ما اتهمت الصحافة المصرية المغاربة
بالتدجيل والسحر والنصب والاحتيال، وما عرفت ان من لوازم
هذا اتهام المصريين في العقل والادراك. ولكن هل مصر
بريئة من تلك التهمة والتاريخ يشهد عليها بالعقوبة. في ذلك
والقرآن يزكي شهادته؟ وهل علم خضرة الدكتور وغيره
ممن يلقون الكلام جرافا في هذا الباب ان المغاربة من هذا القبيل
الذين يذهبون الى مصر، انما يذهبون لتكميل معلوماتهم
والتوسع في هذه الفنون ليصيروا من «الراسخين» في علم
الغيب، فهم يعلمون من خبايا زوايا مصر ما لا يعلمه المصريون
او بعض المصريين، وان الشهرة التي نالوها في مصر في هذا
الشان انما جاءتهم من اجل ان (مغنية الحي لا تطرب) والشواهد
على ذلك كثيرة لا حاجة بنا الى ايرادها.

وعلى كل حال فالانصاف ان التدجيل والسحر والتكهن

جميعها بضاعة مشاعة بين مصر والمغرب وغيرها من الشعوب الشرقية والغربية المتمدنة وغيرها. ولا يصح تغيير واحد من الشعوب بها، وهي لا تكون الا في الطبقات الواطية التي ما خلا منها شعب ولا امة. ومن غفل عن هذا فقد تجاهل اثاره العصور الجاهلية والبدائية في المجتمعات واخلاق الشعوب. وجاء في ص 16 ج في قوله: «ويمكن الحكم بان اول مشكلة عقلية عرضت لاولئك القوم هي الظاهر والباطن او الشرع والحقيقة، ثم استشهد بآية (ثم استوى الى السماء وهي دخان) على ما ورد في القرآن مما يثير هذه المشكلة. وفي استشهاده هذا بعد، واولي ما احتج به هنا قصة موسى والخضر المعروفة وهي حجة الصوفية القائمة على التفريق بين الشريعة والحقيقة.

وفي ص 20 ج في نسب الدكتور مبارك كتاب تلبس ابليس المشهور الى ابن القيم وهو غلط، فان هذا الكتاب للحافظ ابي الفرج بن الجوزي معلوم النسبة اليه.

وفي احدى ثورات الدكتور النفسية قال في ص 247 ج في: «يرحمكم الله ايها المؤلفون في الاخلاق، فاكثركم من اهل الجبن والتلفيق. واي مظهر للجبن اقبح وابشع من أن تصنف الكتب الطوال في مثالب الصوفية على حين يترك الملوك الظالمون في العصور الماضية بلا رقيب ولا حسيب؟».

وهذه سفسطة فارغة وخط بين موضوعين. فان الوزراء

والملوك ما كانوا يفعلون ما يفعلون باسم الدين والغلو فيه. أما الصوفية فانهم اقاموا انفسهم مقام الهداة المرشدين فكان حقا عليهم ان يتجنبوا اسباب القالة ومواطن الريبة، ولذلك صح نقدهم على ما يصدر منهم من ذلك وباقلام اخوانهم الصوفية قبل غيرهم.

ومع ذلك فهل اذا ترك نقد الملوك والوزراء - وهو لم يترك - يترك ايضا نقد الصوفية وكل زائع عن الصراط المستقيم؟ والدكتور نفسه لم ينقد الصوفية كثيرا في كتابه هذا وغيره ويكتف بذلك عن نقد الملوك والوزراء؟

لهذا قلنا ان هذه ثورة من ثوراته النفسية او شطحة من شطحات الصوفية اعدته بها هذه البحوث فلا نواخذة عليها. هذا ولا يفهم احد ان هذا تنقيص من قيمة الكتاب او قدح فيه، فقد قدمنا انه من خير الكتب التي تملك على الانسان وقته ويجد فيها من اللذة والسرور ما لا يجده الا في قليل غيرها. وبالجملة فهو فتح جديد في ميدان البحث الفلسفي والاخلاقي والديني ما اجدر الاقلام المثقفة امثال قلم الدكتور مبارك ان تتناوله بالدرس والتمحيص وتخرج لنا من ان لآن ثمرات طيبة الاكل دانية القطوف.

القلب المنتحر

يا رب ان حياة الفضيلة حياة شاقة تنتابها المتاعب من كل جهة، وهذا المخلوق الضعيف الذي يسمى بالانسان لا يقدر على محاربة كل القوات الخفية والمنظورة التي تصده عن سلوك ذلك السبيل ! ...

ان النفس التي بين جنبيه لتميل كل الميل الى حياة اللهو والعبث وتحب اشد الحب ان تتحلل من قيود الاخلاق والواجبات، فتغمس في لذائدها ومشتهاياتها وتتمتع بكل محبوبات لها وترتشف كأس هواها حتى الثمالة وما تسد لها جوعة ولا يروي لها عطش ! ...

وان القلب الذي ينحني عليه صدره ليكاد يذوب بين ضلوعه مما يعتلج به من الصبايات الجامحة والرغبات الملحة يريد ان ينظر فهو على الدوام يتلقى منه رسائل الحب والغرام، وان فتر برهة عادت الذكريات تفرخ فيه وساوسها فتشير ما به من شوق وهيام وتفتنه اشد الفتون ! ..

انا لا احب النفاق ولا ارضى حياة المنافقين، فلا اكون باطني يتأجج حبا وغراما ونفسي تذهب حشرات على من هويت، ومع ذلك انتظر بالتقوى والزهد واغض طرفي امام الناس وامده اذا خلوت. ليست حياة هؤلاء القوم الذين كل

أمرهم رباً وسمعة فانا لا أريد أن أكون منهم يا رب!
أنا لا أراي بدين ولا أجاهر بهوى ولكني أشكو اليك يا رب!
أنا لست أغلظ كبدًا من ذلك الشيخ الصوفي أو الشاعر
الرقيق الذي اصطنعه الصوفية القائل «مخلقت الجمال لنا فتنة،
فالجمال خلقك، وهو فتنة للقلوب، هذه القلوب الرقيقة التي
بقدر فنائها في حبك ومعرفتها لعظمتك تحس الجمال وتذوقه
وتتهالك على ناره أو نوره تهالك الفراش على السراج ...»

أن من شيوخ الصوفية من كانوا يتخذون العلمات
كاللؤلؤ المكنون يطالعون في صفحات وجوههم، آيات الحسن
والجمال، فانا لست اتقي ولا انقى من هؤلاء الذين ما تصوفوا
حتى ادعوا أن فيهم زيادة على مطلق المومنين وأن كنت
لا أقبل طريقهم في الجمع بين الزهد والاستهتار والتكشف
والمنازع، ولا أجعل الدين ذريعة للدنيا، ولا استبدل الشواب
الرغائب ذوات النهود ختامها مسك والعيون ملؤها السحر
والغور تنطف خمرًا وعسلًا بالشبان المخائث.

يا رب أنت تعلم أنني أحجم عن كثير من مناهيك لا
مراعاة للناس أن يقولوا عني ما أكره، فأهون بالناس عندي
لما أعلم من خبهم وخداعهم، ولا خوفاً من أن أصلي عذاب
جهنم فأنك جبلت الإنسان أو جبلتني أنا على الخصوص أرجو
لرحمتك من عذابك، وأوثق بعفوك من عقابك ولكني أهابك

وأجلك ان تراني حيث نهيت بالخال التي نهيت عنها فاحجم
وانا خجلان واقدم اذا اقدمت وانا خزيان .

ولقد صرت مما عرفت من تقييخك للفحشا بحيث لو
ابحتها لتورعت عنها ومما كرهت الى الاثم اني لو تيقنت
بغفرانك لسي للقيتك وانا في غاية الندم على ما فات ! ملات
عظمتك نفسي ومهابتك قلبي فهل يضير ان نفحت عليهما ساعة
من نهار نفحة غرام مقدور او تصباهما هوى متاح ؟ ..

لا يا رب ! القلب من صنعك والجمال من خلقك وما
يصطدم بينهما من الاهواء والميول والعواطف والنزعات هو
امر لا تدركه العقول ولا تحيط به الافهام . فانا ماض في
الطريق التي يسرت لها ومع ذلك لا اخلي باطني من نية عمل
الخير والتأسف عليه ان فاتني . . .

هكذا كان صاحب القلب المنتحر يناجي نفسه وهو على
مائدة الفطور بعد ان هب من نومه متثاقلا متبكاسلا ، فانه كان ينام
كثيرا يرى في النوم منقذا ومخلصا من همومه واحزانه ولم
يك كأولئك المحبين الذين يلجأون الى النوم لاجل ان يروا
اطياف احبابهم فما كان به من حاجة الى رؤية من احب في
النوم وهو يظل يراه في اليقظة ويصطدم به انى ذهب بكرة
وعشيا ، انما يحول بينه وبينه طائفة من الاعتبارات هي في
عرف الحب خرافات واوهام وفي شرعه هو حقائق واحكام
كان مرتبطا بعقد زواج مع فتاة هي مثال الطهر والعفاف

والجمال الحي والاثونة الحصة فيرى ان حياتها من اكبر
الكبائر وان ليس عند غيرها الا ما عندها. فليس من العقل ان
يبيع بضاعة بيضاء لا يستفضل فيها شيئا بل ربما وكس فيها كثيرا
وكان قبل ان يرتبط بهذا الرباط المقدس وبعده يستحضر
كل قواعد الدين وكل اصول الاخلاق بل ان ما كان يغيب
عنه من النصوص الدينية والمبادئ الخلقية في سائر الاوقات
كان يحضره في الوقت الذي يهتم فيه بمقابلة من احب
واطفاً نار شوقه بالاجتماع معه ولو جزء ساعة - كما يقول
ابن الفارض - فيعجب لهذا الذهن البشري كيف يسافر في
اقل من لمحة الى الآفاق المجهولة وكيف يرود ملكوت
السموات بسرعة لا نسبة بينها وبين سرعة الضوء العجيبة ثم
يعود وقد احضر بين يديه الماضي كله بمعقوله ومحسوسه
ومذكوره ومنسيه وفتح امامه بابا يتطلع منه الى المستقبل
المغيب ويقول اياك!

وكان يذكر انه طالما حذر غيره من موقف كهذا
الموقف واستنفذ كثيرا من الشباب من مزلات الغواية
ومداحض الاثم فيشتمن ان يرى نفسه تقع فيما يحذر منه
الناس ويتعد ان يستهدف لما لا يستهدف له الا الاغراز
والمستهترون.

هذه هي الموانع التي كانت تمنعه من ان يستغرق في
حبه ومرضاة قلبه وتجعله يتأخر كل يوم خطوة او يقف حيث

هو بدل أن يتقدم خطوات في الغرام الذي ملك عليه أرجاء نفسه وصار شغله الشاغل وفكره الملازم. ولكن من يدري لعل هذا اللجام الذي كان يلجم به نفسه ويكبح به هواه هو نفسه كان يضاعف رغبته المكبوتة ويقوي ميله الى المحبوب فينقاد بحبله الى الغاية المرسومة من حيث يظن انه ينكف عنها؟.. ونهض صاحبنا عن مأددة الافطار وهو مثقل بهذه الخواطر وخرج قاصدا محل عمله فاذا بها على باب منزل صديقتها كأنها تنتظره لتثير كامن غرامه وتهيج بلبله من جديد.

ورأها قانبهـر وزجف فؤاده وبدأت علامات الاضطراب عليه فلم يدري ما يضع. وكانت هي تلحظه وتدري ما به فتهيأت له تتودده وتعامله بابتسامتها الحلوة التي يشرق منها وجهها ويزيد بها اضطرابه، ولكنه اعرض ونأى بجانبه ومر كأنه لم يرها فلم يحبها ولم يلتفت لجهتها ودخل الى محل عمله وهو يتعثر في اذيال السخط والغضب.

هل يدل ذلك على شيء من الادب فاحري الحب؟ هل كذلك تكون معاملة الرجل المذهب للفتاة الجميلة من معارفه او جواره؟ يا ليت شعري ما ذا يكون اثر ذلك السلوك الخشن في نفسي لونا... لونا حبيبة قلبي ومطمح انظاري؟.. لا، لا، اني لرجل قاس! بل لست برجل فان الرجولة تنافي هذا السلوك الشاذ. كيف اعرض لها اول مرة واتلطف بها حتى تنيل الي واحظى بعطفها ثم اقطع حبلا بهذه الصورة الفظيعة؟

اني لوحشي طارا هكذا املت الفرصة الثمينة التي
واقفتني في عروس احلامي اوسي قبل خمس سنوات وكانت
ايام رمضان فتجنبت ان القاها وكان لقاءها اقصى امل لي
في الحياة فغضبت ومضت الى غير رجعة !

وهكذا نخرت قلبي بيدي لما زهدت في الفتاة التي
كنت احبها بكل جوارحي خشية ان يظن الناس اني انما
تزوجتها رغبة في جاه او مال !

وماري الم اكن اجلس واياها على مكتب واحد نتدارس
قصص الحب وقصائد الغرام وتعلمني كيف اصرف فعل احب
بلغتها وتتبرج لي تبرج الانثى تصدت للذكر - على حد تعبير
ابن الرومي، وانا انحرق شوقا وغراما اليها ولكني اتعمد الا
افهم التعريض ولا اشجع التصريح ؟ ..

يا لله من ذلك الذراع البض الممتليء والصدر الناهد
الخفاق والساق الخدلج الذي ربما اختلف مع ساقي تحت
المكتب فيحدث ما يحدثه السالب والموجب من اسلاك الكهرباء !
ويا لها من ايام جميلة ما اظن انها تعود ابدا وان عادت
فما الفائدة منها وانا بهذا التزمت الرهباني والدم البارد الذي
لا يصلح للحب ولا الحب يصلح له ! ..

وثار نفس صاحبنا بعد ان اصطدمت هذه الخواطر في
ذهنه عشرات المرات فقام عن مكتبه الذي لم يشتغل عليه
بشيء منذ جلس اليه وخرج ليرى لونا ويسلم عليها ويعتذر

اليها ويستدرجها لاجاديت اخرى ولكنه لم يجدها. وانتظر
طويلا بازاء منزل صديقتها وتردد مرات عديدة بين منزلها
ومنزل صديقتها فلم تظهر له لا من منزلها ولا من منزل صديقتها.
وانما صديقتها التي ظهرت له فحياها وحيته وتبادل معها
بعض كلمات، ورأت مراقبته لبيتها وترصده الطويل لمن فيه
فقوى ظنها بانه حولها يحوم وانه لا بد كلف بها وان كان
يعتريها في ذلك شك قبل اليوم فقد زال ذلك الشك الان
واصبح حبه لها حقيقة لا تقبل الجدل.

ولما رأى هو ان صاحبه غابت وان صديقتها هذه تريد
ان تنكأ جرحه القديم عاد الى محل عمله وجلس الى مكتبه
وحاول ان يشتغل قليلا حتى ينسى ما به.

كان منزل هذه الصديقة يقع في مقابلة المحل الذي
يعمل فيه صاحب القلب المنتحر، وكانت شابة رشيقة القوام
دقيقة القسمات ناصعة البياض حلوة الجسم خفيفة الروح عاطفية
مهندمة لا تقع العين منها الا على ما يستحسن ويفري. وكان
اول ما لفت نظر صاحبنا اليها انها تسكوت في ذلك المنزل
وحدها وانه لا يرى عندها رجلا ولا امرأة. ثم لم يطل الامر
حتى علم انها متزوجة وان زوجها لا يحضر عندها الا في يوم
معين من الاسبوع واخبرته هي بذلك تبرعا منها. وراه هو
فرأى فيه شابا جميلا معذبا يليق بها وتليق به.

وكانت هي لوحدها تميل الى الرغبة في الحديث مع

صاحبنا والآن به وكان هو متأثراً بمطراتها العاطفية يميل
الى الحديث معها ويستحسن جمالها المهندم، ثم تطور الامر
من الاستحسان الى التعلق بالغرام...
وقع الطائر في فخ الصائد فمن ذا يخلصه والصائد لا رغبة
له في اطلاقه والطائر على رغبته في لفظ الحب يحب الحرية
ولا يرضى بالسجن والهوان؟..

هنا برزت لونا او قل طلع القمر لولا ان القمر مذكر
في العربية لا تسمى به الاناث، وهي بنت من اسرة فقيرة
تتركب من لونا واختها التي تكبرها بقليل وامهما وتسكن
في منزل بطرف الحي، ولا يدري صاحبنا كيف اتصلت بالصديقة،
وكيف تمكنت اواصر المودة بينهما وكائنا من جنسيتين
مختلفتين. انما الواقع انه صار يراها كل يوم في منزل الصديقة
تؤانسها وتعينها في شغل البيت وتواكلها. ويراها تخرج معها
للفسحة وقضاء ضرورياتها، ولم تكن هذه الصديقة من اليسر
والسعة بحيث تستخدم لونا ولا كانت علاقة لونا بها علاقة
الخادم بمخدومتها بل علاقة الصداقة والمودة والمؤانسة والمجالسة.
واهتمت الصديقة بلونا فهندمتها واظهرت من محاسنها ما
كان خفيا والقت بها الى الشارع فتنة للناظرين.

وكانت لونا هذه صبية في الخامسة او السادسة عشرة من
العمر ربعة قمحية اللون صافية خمرة العينين واسعتها
وعليهما حاجبان اثيثان كأنهما خطا ببركار، مبلجان مزججان

خالقة لا صنعة. يتردد نظرك بينهما وبين الهدب الوطف وما
تطبق عليه فيغزوك السحر والبحر والفتون، وتوخذ عن نفسك
وتسلم قلبك في اول ما تسلم ولا تستطيع ان تقاوم ولو لحظة
واحدة. وتحت ذلك انف منبسط قليلا لو لم يكن كذلك لما
انسجم مع هذا الوجه المنبسط ايضا. وخوله وجتان موردتان
دائما. وتحتة فم واسع ذو شفتين لمياوتين كأنهما شهدتان
تقطران عسلا، فاذا انفرجتا انفرجتا عن ثغر مفلج مصقول
ولثاث حو معلولة. وما يهزم الفؤاد ويخدر الاعصاب كابتسامة
هذا الثغر التي تشترك فيها العينان والوجه بجميع تقاطيعه ولا
سيما فقرتان تبدوان بجانب الفم وتحت الوجنتين، فيجى من
هذه الابتسامة اشراق وجمال لا يكيفان وانما يخلان المرء على
ان يقضي شهيدا في هذا المعترك ولا يحدر عينه...

اما النحر والصدر وما عليه والذراعان وما اليهما فاشيا
كلها شهوة واغواء ولا يستطيع الوصف ان يقربها فاحرى ان
يمثلها كما هي!

وكان لها لمة كستنائية اللون حريرية الملمس لماعة
جذابة تعشق من وراء فكيف بها اذا اقبلت تنوس على ذلك
الوجه وذلك القوام اللذين هما من اجمل ما خلق الله ؟
هذه بعض الخطوط التقريبية لصورة لونا التي هي موهبة
من الله لاسرتها الفقيرة وكثر يعوضها ما فقدت من غنى ومتاع
وكم في البيوت الفقيرة من هذه الكنوز الغالية والجواهر

التيمة تكون سلوة لدونها ومفتاحا لئاب الامل والرجاء!..
فلما ظهرت لونا في الميدان كانت بلسما شافيا لصاحب
القلب المنتحرم حب الصديقة ورقية نافعة له في الافاقة
من تلك الغشية التي كانت ستجعله مثلة بين الناس .

ولكن المسكين ان كان افاق من حب الصديقة فانه
وقع في ورطة اعظم وداهية اظم وهي حب لونا حبا ملك عليه
جميع مشاعره وقاده اليها بحبل مفتول من شغاف قلبه وشرائع
جوارحه فصار اتبع لها من الظل واميل من الغصن الرطيب
كلما مرت امامه او نظرت اليه او ابتسمت او سمع صوتها او
تخيلها وهما . وصار لا شغل له في المكتب الا ترصدها وتتبع
خطواتها فكان يعرف ان كانت في بيتها او بيت صديقتها او
في الشارع بحيث يخرج فيصادفها في المحل الذي حزرها فيه .
وكان لا يقدر ان يستغرق في الحديث معها لان الصديقة
تقع في طريقه وهي لا تكاد تفارقها . ثم هو يرى ان الاسترسال
في حبها ومفاتها به جناية عليها وطيش وسفاهة من جهة
اخرى ، انما هذا الرأي لم ينفعه ولم يثن عنانه . وهل بقي فيه
مع هذا الحب الجنوني ما يستجيب لداعية عقل او يصيح لوعي
ضمير ؟ ..

ومضت على صاحبنا عدة اسابيع وهو بهذه الحالة الشاذة
يتحرق لوعة وغراما على لونا ولا يجد اليها سبيلا . ولاحظت
عليه الصديقة انه انصرف عنها ولاحظ عليها انها استأنست كثيرا

بلونا. وأدركت لونا أنه يهتم بها جداً فلم تنفر منه ولا انكرت عليه بل بالعكس صارت تعطف عليه وتتلف به. وأنسه أولاً هذا العطف واعتبره مشجعاً على التقدم إليها بغرامه ولكن أنى له ذلك وهذه أشباح التهديد والوعيد تلوح له من قريب وبعيد، وتلك صديقتها يخجله أن تظهر عليه وتحسبه محتالاً متلاعباً بقلوب النساء. فأول ما تفعل أنها تنصح لونا بالحد من تصوراته لها في صورة الأثيم الافاك ١٩...

وباليتة كان حقيقة من أولئك الوصوليين الذين لا يبهون بهذه القيم الأخلاقية أو قل بهذه الأوهام السخيفة، اذ كانت لونا الآن بين يديه ومتاعاً خالصاً له من دون الناس، ولم يبق معذباً مفتوناً بهذا الغرام الذي وقع عليه من السماء. ولم يجد منه سبيلاً إلى الخلاص...

كذلك كان صاحبنا يفكر ويقدر ويعزم ويتردد حتى أفضى به الحال إلى الغلطة الشنيعة التي ارتكبها مع فاقنة له ومالكة قلبه في ذلك الصباح حيث مر عليها ولم يسلم وتجاهلها وأعرض عنها ثم خرج بعد قليل يبحث عنها ليترضها ويعتذر لها فلم يجدها.

وقد قضى يومه ذلك في طلبها والتعرض لها في المواطن التي كانت تتردد إليها فلم يعثر لها على أثر وكأنها تعمدت أن تحتجب عنه في ذلك اليوم جزاً وفاقاً على ما تعمدت جرح كرامتها...

ولما تبس من رؤيتها عاد الى بيته وهو يعرض يمان الندم على ما فعل ويقول يا لي من جاهل احق ا اجني على نفسه ما لا يجنيه العدو على عدوه فلو اني فكرت قليلا لعلمت ان حب لونا قد استقر مني في الاعماق وانه ليس من السهل انتزاعه بهذه السرعة . وعلى الاقل كان يلزم مني ان ادار به لا تفادي تعب هذا النهار . فما انا بعد ان كنت اشتكي من تعب الفكر وشغل اليال اضيف الى ذلك تعب الجسم وخيبة الامل . ثم يعود ويقول ما لي لا اجعل هذه هي الخاتمة ويكون الله عز وجل قد هيا لي الاسباب لينقذني من هذا العذاب ؟

ولكن هيهات ! فان هذا الخاطر ما يكاد يرد على نفسه حتى تتمثل صورة لونا امامه وتقرم نار وجده وغرامه فيستغرق في مشاهدتها والتسلي بمحاسنها ويرجع على نفسه باللائمة لانه اغضب ذلك الوجه الجميل ويفكر اين تكون في تلك الساعة ؟ وهل بقي بنفسها اثر من صدمة الصباح ؟ ويتبنى من صميم قلبه ان تكون احسنت قاويل ذلك السلوك منه والتمست له عذرا كيفما كان .

واخيرا يلجأ الى سلوته الوحيدة ومعاده الذي يلوذ به في مثل هذه الازم وهو النوم فيستغرق فيه الى الصباح . ويرى لونا في احوال مختلفة لا يضبط منها شيئا وعند ما يستيقظ يجد نفسه قد اطمأنت قليلا ولم تبق فيما كانت عليه من ثورة ويعجل بالخروج عله يصادفها فيكفر عن زلة الامس ولكنه يخيب امله

فلا يراها وانما يرى صديقتها ويهم بسؤالها عنها ثم يتراجع ليلا
يكشف الغطاء عن قضيته معها.

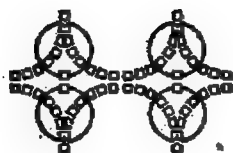
ويظن ان من الخير له كونه لم يرها لتزداد نفسه اطمئنانا
ويزول من نفسها اثر تلك الصدمة فاذا لقيها بعد لم ينكر من علاقتها
معه شيئا. ولذلك لم يلج سحابة ذلك النهار في طلبها وابتغاء
لقيها حتى اذا كان العشي وخرج يتفصح بشاطي البحر يروح
عن نفسه من تعب تلك الايام ويؤمل ان يعادفها هنالك مع
الصديقة اذ اعتادتا ان تكونا في ذلك الوقت تنفسحان على
الشاطي مع المتفسحين؛ اذا به يراها من بعيد تقطع الشاطي
حيثة وذهوبا ولكن لا مع الصديقة كما كان يتوقع بل مع شاب
متأنق من بني جنسها وهما في حالة من الغبطة والسرور لا توصف.
وكذب عينيه اولا وارتاب في ان تكون هي فاقترب
منها وراها راى العين وحياتها فحيته ولكن بدون اهتمام ومضت
في سبيلها مع صاحبها وتركت صاحبا للاحزان والآلام...
صدم صاحبا في شعوره صدمة عنيفة واحس قلبه يتمزق
قطعا قطعا واظلمت الدنيا في عينيه وود لو يسافر من ساعته
الى اقصى الارض حيث لا يسمع ولا يرى ما يذكره بحبه الفاشل
وانهزامه هذا، ومضى يتحامل على نفسه ثقيل الخطى وثيد
الحركات يلتفت فيرى امله المحطم وهواه الضائع متخلفين
وراءه فيسمر في مكانه ويكاد يسقط مغشيا عليه. ثم يمضي
ويلتفت فتغم عيناه وتحول الدموع بينه وبين ان يرى شخص من

أحب مع غيره ونسعه الكبرياء من البكاء فيمسح عينيه ويكلف
التجلد. ثم يمضي ويلتفت فتكون قد غابت عنه وصار بحيث
لا يستطيع رؤيتها فيقول في نفسه هكذا ذهبت عني الى الأبد
وأصبحت لا طمع لي فيها لاني قبل ان يفتح قلبها لغيري كنت
أمني بها نفسي وكنت أريد ان أعيش وأياها في ظلال هذا
الحب الأفلاطوني برهة تعد بأجيال ولا تحسب من أوقات هذه
الحياة الدنيا. اما وقد رمت قلبها سهام «كوييد» واطلعت على
دنيا الغرام وذوقت أفويق اللذة وحلاوة الوصال فاني لم يبق
لي فيها حظ ولا نصيب.

الوداع! الوداع! يا فاتنة لبي ومعذبة قلبي. انعمي بالا وقرري
عينا فما اغبطني بان تكوني مسرورة مغتمة ايام شبابك الجميلة..
اما انت يا قلبي المحزوب فهذا خنجر اليأس المشحود
اغمدته في احشائك واقطع به نياطك ليسكن بلبالك ويهدأ
حفظاك وتستريح الى الأبد من عذابك الاليم!

وهكذا طويت صحيفة هذا الحب من حياة صاحب القلب
المنتحر واعانه على نسيانه انه كان يرى لونا تسرع الى الانحدار
في هاوية الاستهتار فيذبل عودها وينصل لونها ولا تعود تملأ
الفراغ الذي كانت تملأه من نفسه. ولكن انى له ان
ينسى تلك الصورة الفاتنة التي ارتسمت في مخيلته اول مرة
فلم تفارقها ابدا؟..

ولذلك فهو يتخذ من أخت لونا مذكرة بها ومخيلة اذ
كان فيها مشابه منها وملامح، ولولا فرط امتلاء في بدنها وبروز
قليل في جبينها لكانت هي بعينها لا تفترق عنها بشيء .
وانما هو لا يستغرق في هذه المشاهدة ولا يبالغ في هذا
التخيل خشية ان يقع من جديد في ورطة يعسر عليه التخلص منها .



سرقه فنية

عزمت على الرجوع من مدينتي تطوان الى مدينتي طنجة، لان مهمتي التي استغرقت في هذه المرة اسبوعا كاملا قد انتهت. ولم يبق لي الا ان احزم امتعتي واولي وجهي شطر جوهرة المحيط، وقد كلفت احدي عاملات الفندق الذي اتخذه مركزا فقط. حيث لم تكن بي حاجة ابدا الى فندق انزل فيه في مدينة كل بيوتها الكريمة مثل بيتي.

اقول كلفتها بانزال حقيتي والكتاب الذي كنت اخلو اليه حين اجد الفرصة للقراءة وهو كتاب ذكرى ابي الطيب للدكتور عبد الوهاب عزام، فانزلتهما الى اسفل واودعتهما عند البواب بينما كنت انا اسدد حساب الفندق واوصي بحمل الحقيبة الى محط شركة السيارات في موعد قيام السيارة التي تتوجه الى طنجة.

ولما حان الموعد توجهت الى المحط للركوب الى طنجة فاذا بصبي الفندق ومعه الحقيبة، فسلمها الى خادم السيارة فوضعها على سطحها مع امثلة بقية المسافرين. وما هو الا قليل حتى تحركت السيارة قاصدة طنجة.

وقد مررنا مسرعين في بسيط الوادي المنخفض ثم صعدنا متباطئين في ثنية الجبل الشامخ، وبعد ما استوينا على قمته

اخذنا نتحدر شيئا فشيئا بين تعاريج الـ اخدور الذي اسلمنا الى طريق مستقيمة انتهيينا منها الى مركز « البرج » على حدود طنجة. وهناك وقفت السيارة ونزل المسافرون وبدي بانزال المتاع لتمثيل مهزلة الحدود التي تقضي ببحث جواز السفر وفحص المتاع وربما المسافر نفسه بين البلدين المتجاورتين في التراب الواحد من القطر الواحد! فياليت لنا قليلا من هذه الوقاحة الادارية لنحمي كثيرا من الحقوق التي يذهب بها الحجل المفقوت! ..

وقفت بازاء السيارة اشهد هذه العملية. فكان العمال يأخذون الحقائق والامتعة الى مفتش الجمرك والشرطة يراقبون الحركات والسكنات ولما اخذ احد العمال حقيبتي من على سطح السيارة فتحها وقال للشرطي: هذه فارغة فهل يجب انزالها وفحصها هي الاخرى؟ .. قال الشرطي: لا ولكني قلت كيف تكون فارغة؟ اين ما كان بها من اللباس والاشياء الاخرى؟ وهنا انقلب اشمزازي من التفتيش حرصا على ان تنزل الحقيقية كاخواتها وتفتش كما يفتش غيرها من حقائق الناس وضرت اري ان المغبون يومئذ هو الذي « لا درهم له ولا متاع » يفتش!

ونزولا على الحاحي واحتجاجي المتكرر انزلت الحقيقية فاذا بها مفتوحة الاقفال فارغة لاشي فيها ولم يكن لي بد من توجيه التهمة الى خادم السيارة الذي لم يظهر عليه اقل

ارتباك ولم ينال بالامر وزعم انها كذلك كانت لما اتى بها
صبي الفندق وانه حين ناوله اياها كانت اخف من الريشة دليل
فراغها وعدم احتوائها على شي .

وانا وان لم اصدق ما قال ، لم يبق لي الا ان آخذ دليل
الاثبات من شرطة المركز بان الحقيقة وجدت فارعة على سطح
السيارة حتى يتأتى لي ان اتابع الاجراءات اللازمة بعد الوصول
الى طنجة .

وعدت الى السيارة وكنت افكر في القضية واجيب على
سؤال الفضوليين من ركاب السيارة واسمع تعليقاتهم على
الحادثة وما منهم من احد الا وهو يتعجب من عدم اختباري
لها قبل الركوب ورفعها ولو لمعرفة مقدار ثقلها حتى ليوهنك
حديثهم انهم دائما يعرفون ما سيقع فيستعدون له قبل ان يقع .
وما ان وملنا الى طنجة حتى اخذت اتجأ الى مركز
الشرطة فقابلت احد رؤساء الاقسام الذي تعجب من الحكاية
وقال ان هذه سرقة فنية على الطريقة الامريكية ! ولا بد انها
كانت مدبرة بين احد اللصوص وصبي الفندق . وشرع في
كتابة تقرير بالقضية ولائحة بالاشياء التي كانت تحتوي عليها
الحقيبة على حسب ما تلقاه مني .

وهنا ذكرت كتاب ذكرى ابي الطيب الذي لم اكن
جعلته في الحقيقة بل تركته موضوعا فوقها واوصيت عاملة
الفندق بانزاله معها ، فزاده في اللائحة ا - وبعد ختمها اكد

لي انه سيتخاير مع شرطة تطوان قلعونيا وان اول من سيواخذ
في القضية هو صبي الفندق وانه ان لم يقر بفعلته وشركائه
فلا بد انه سيقضي ليلته تلك في السجن تحت طائلة العقاب .
ومن ثم ودعته وانصرفت.

وكانت حوالي الساعة الثامنة مساءً حين رجعت الى
البيت بحقيبتى الفارغة التي تشبه خفي حنين، فكانت حكاية
طريفة من اغرب ما سمعه الامل والعيال. وكانت موضع حديث
وتعليق طويلين. وكانت ربة الدار تتأمل في الحقيبة فتشبهه
فيها وتقول انها جديدة، فاقول لها وهل حقيبتى بالية ؟ ثم اقول
يجوز انهم ابدلوها بحقيبة جديدة من لونها وشكلها ولكنها
فارغة واخذوا «العامرة». فتقول هي وعلى كل حال فقد ربحت
حقيبة جديدة ! ..

وتمضي في التندر علي بما لم يسمعه حنين لما رجع
الى اهله بخفيه الجديدين وضيع الراحلة بما عليها. ! ..

ولما كان الغد بينما انا اتهيأ للخروج من المنزل اذا
بالباب يطرق واذا باحد سكان المدينة المعروفين حاملا
للحقيبة العامرة وكتاب ذكرى ابي الطيب فقدمها الي وقال
اني كنت بتطوان امس نازلا في نفس الفندق، واني رأيت
حقيبتك عند البواب فاعجبني واشتريت حقيبة مثله وادعتها
عنده. ولكنك اخذت حقيبتى وتركت حقيبتك. وقد اوصاني
صاحب الفندق ان ابليغك حقيقة الواقع واسلم اليك الحقيبة

وأخذ منك حقيبي بعد أن تأكد من شخصيتي ووثق بي
كل الوثوق.

وشد ما كانت دهشتي لهذا الاتفاق الغريب وعجبت
كيف أن البواب كان باردا مثلي فلم يميز الحقيبتين ولم
يرفعهما ولو لمعرفة ثقلهما حتى يدرك أن أحدهما فارغة
والأخرى عامرة! وشكرت صاحبي وسلمت إليه حقيبته وأنا
لم أقض العجب من هذه الواقعة.

وهنا وجدت أن أمامي واجبا هو اعلام الشرطة بالعبور
على الحقيبة الضائعة وحفظ القضية المرفوعة ضد الفندق
وعماله بتطوان فلم انتعاس عن القيام بهذا الواجب على وجه
السرعة. وخرجت في الخيف وقابلت رئيس القسم وابلغته
صورة رجوع الحقيبة، وحقيقة الواقع ورجوته أن يتلافى الأمر
بسرعة ليلا يقع محذور لصبي الفندق أو غيره من العمال،
فطأمني بأن التقرير لا زال لم يرسل وأنه لم يتكلم أمس
بالتلفون مع شرطة تطوان! وأن الدنيا بخير!...



الصورة المعلقة

ترددت في مناسبات مختلفة الى منزل بعضهم ممن له رأي في كل موضوع وتشوف الى المشاركة في كل مشروع يقطع النظر عن صيغته وعدم اعتبار مبدئه وغايته فكنت ارى في صدر البيت صورة احد العاملين في الحقل الوطني محاطة بقطار من التهجيل والتعظيم من رب البيت وكافة اعضاء أسرته وغبرت مدة غير قصيرة على هذه الحال ثم رأيت ذات يوم صورة شخص آخر معلقة في مقابلة الصورة الاولى من البيت نفسه وهذا الشخص هو ممن يمتون الى الوطنية بسبب وبينه وبين رجالها وشائج نسب هذا غاية ما يمكن ان يقال فيه وان كان هو لا يرضيه هذا الوصف المتواضع ابدا فلما رايت تلك الصورة الثانية قلت زيادة خير وعسى ان يكون ذلك من باب التقدير المجرد لجهود العاملين .

فلما كان بعد حين قليل رايت ان الصورتين معا قد انزلتا من مكانهما ولم يبق لهما اثر في البيت وتبواب صورة اخرى لزعيم محبوب محلها فلم افرح بظهور هذه الصورة الثالثة الفرح الذي كنت استطيع ان افرحه لولا هذه السوايق لتوقعي ان تنزل هذه الصورة في يوم ما من مكانها كما انزلت سابقتها .

اعرف ان بعض من لا خلاق لهم يسلكون هذا السبيل
في التقرب والرفق ممن تكون بيدهم مقاليد الامور فهم
اعوان من والله دولته واعوان عليه اذاعادته كما يقول الشاعر
الحكيم ولكن الغريب هو ان يوالي الشخص ويعادي في مدة
سنتين او ثلاث رجالا من ذوي الكفاءات والاعمال النافعة
ويعلن ذلك بصورة واضحة فيتلقي منه هذا الدرس المزدول في
التقلب والاضطراب ابناءؤه واهل بيته جميعا ثم هو لا يرجو منه
ولا يخاف، اننا بحاجة شديدة الى التربية الوطنية وبحاجة
اشد الى الثبات على المبدأ، فان التقلب والتلون والتردد في
المبادي لا نتيجة له الا الانسلاخ من القومية والتحلل من
العقيدة والرسوخ في رذيلة النفاق.

ما احق الرجل بالثبات على مبداه وعدم التحول عن فكرته
ولو كان مخطئا لان ثباته تضيف الصواب ولان يكون معه نصف
الصواب خير من ان يكون فاقد الصواب مطلقا.

واني لاحترم الرجل واقدره وهو على غير رأبي وخضم
لي في فكري لاعتصامه برأيه وتمسكه بنظره ولا احترم
المتردد المتلون الذي يكون مع كل امة بدين ولو وافقتني
في الرأي وجاراني في النظر وايدني في فكري، لاني اعلم ان
موافقته الي خلاف ومجاراته الي تخلف وتاييده الي خذلان.
لو كان اتباع الرسل والانبياء من هؤلاء المترددين المتقلبين
لما اديت رسالة ولا دين الله عز وجل بدين. ولو لم يظفر

الحكماء والفلاسفة بتلامذة مخلصين لما تقررت حكمة ولا عرفت
فلسفة بل ان جميع الدعوات الاصلاحية والمذاهب الاجتماعية لو
لم يقيض لها المومنون الصادقون لما كتب لها ان تنتشر وينال
الناس بفضلها خيرا كثيرا. فحيا الله العاملين الثابتين ولا
كان هؤلاء المنافقون المارقون



تحقيق مع صاحب الذيل والتعليق

لم أرحب بالبحث الذي نشر في العلم حول كتابي «امراؤنا الشعراء» بقدر ما رحبت بظهوره في هذه الجريدة؛ لانه مهد لي السبيل للكتابة فيها في مواضع الادب والنقد التي كنت اتحاشى بها عنها لما ارى من اهتمامها بالاخبار والمباحث السياسية، فكلما هممت بنشر شيء من ذلك اقول في نفسي كيف والقوم مشغولون بما هو اهم؟ فالآن حيث فتحت لنا المجال لم يبق علينا من حرج في تناول هذه الموضوعات برغم انف السياسة والاخبار!

واما قبل فإني اشكر حديقنا الاستاذ عبد الرحمن الفاسي على عنايته هذه بكتابي «امراؤنا الشعراء» وتناوله إياه بالنقد من بين سائر الكتب التي خرجت في عامه حتى الذي صدر منها في الرباط مقره ومقر مؤلفيه. وما ذلك الا لمزيد الحفاوة والتقدير فإن الكتاب الذي يقتنى ويقرأ من اوله الى آخره يعد ناجحا حقاً، ثم اذا بعث قارئه على التفكير في شأنه والكتابة حوله فان نجاحه يكون عظيماً، ونعوذ بالله من كتاب لا يقتنى فاذا اقتنى لم يقرأ فاذا قرى لم يقرأ كله فاذا قرى كله لم يبعث في نفس قارئه شعوراً بالاستحسان ولا بالاستهجان ولا يلبث بعد ما يلقيه من يده ان ينساه ولا يعود يخطر له

بمال... هذا النوع من الكتب محكوم عليه بالإعدام من يوم
ظهوره على حد ما قال الشاعر فيما هو من هذا الواد:
يموت ردى الشعر من قبل اهله

وجيده يبقى وان مات قائله
وكتاب «امراؤنا الشعراء» ليس من هذا القبيل بدليل ما
صرف اليه صديقنا الفاسي من وقت نفيس وجهد طائل،
فالحمد لله على ذلك!

ثم اني رايت الناقد قسم كلامه الى قسمين، تناول اولاً
الكتاب بصفة عمومية فادلى ببعض الآراء والافكار في منهاج
الكتاب وطريقة تأليفه واسلوب العرض لشخصياته، وتتبع ثانياً
فيه بعض المواضع التي كانت حرة في نظره بالتتبع والتعليق.
وحيث انه في الاول كان يطبق اراء شخصية لا قواعد
نقد مسلمة، وفي الثاني انما جرى بحكم تلك الآراء حين توهمها
صحيحة لا نزاع فيها - فإني احببت ان اعقب على كلامه
ببيان ما فيه من الخطأ او التوهم لان الجريدة عمومية تقع في
يد من يحقق ذلك ومن يقبله على غره ولا يميز لبابه من
قشره وسأتبع تقسيمه فاتناول العموميات ثم اعود الى الجزئيات:
اول ذلك طريقة عرض هذه الشخصيات من امرائنا
الشعراء وسياسة اشعارهم، العارية عن تحليل نفوسهم وتمثيل
عواطفهم! وابرار سرائرهم! وتشخص احساساتهم وتحديد
مذاهبهم ومناقشة آرائهم في الادب والحياة وربما في الفلسفة!

الى آخر هذه الكلمات الطنانة العارضة والعارضة هي أي ذلك
الطريقة أيضا عن تناول هذه الأشعار بالبحث والمقارنة والنقد
والدراسة حتى يتجلى ما فيها من جمال اخاذ واسلوب جازع
وخيال مبدع ومعان سامية الى آخر القائمة اللفظية المعلومة؟
ويعبر الناقد عن ذلك بالعبارات الآتية: «ولعل في حياة السادة
امراء الدولة الموحدية ما يهدي الباحث الى مكان من اسرار هذه
الشاعرية، واخلق بحياة اصطلاح على تأليف عناصرها الادب
والغرام والفروسية والمدام ان تكون حرية بالدرس والتحليل
في هذا المقام».

والاحظ بادبي بدء هذا الوثوب من امراء ما قبل الدولة
الموحدية اليها وهذا التخصيص بهم كأن الكاتب مقتنع في
سريته بان حياة امراء غير هذه الدولة ليس فيها ما يهدي الى
اسرار الشاعرية... ثم اني اقول حقا ان هذه طريقة... وهي
طريقة مثلى في دراسة الآثار الادبية الممتازة اذا توفرت بين
يدي الباحث ودراسة حياة اصحابها اذا وجد مواد تلك الدراسة
من مصادر تتحدث عن نشأتهم ونبوغهم واعمالهم وغير ذلك مما
يمكن ان يتخذ دليلا في فهم منشئاتهم الادبية وانتاجهم
الفكري وقد اتبعها كثير من كتاب الشرق العربي الحديث
في البحوث القيمة التي وضعوها عن ادباء العربية الكبار كأبي
العلاء والمتنبي وابن الرومي وابن زيدون وامثالهم، وهي مع
ذلك لم تخلص لهم تمام الخلوص ولم يمكن لهم ان يطبقوها

بحيث تعطي الصورة الكاملة للاديب المدروس لها ان كثيرا من دوائر حياة ادبائنا ودقائق اخبارهم فضلا عن تواريخ اعمالهم الادبية غير معروفة لنا، وبمعكس ذلك ادباء الغرب المحدثون الذي يطلع على الناس كل حين تراجم مستوفاة لهم بسبب عنايتهم بتسجيل هذه التفاصيل عن أنفسهم او تسجيل الغير لها فيمكن لمؤرخهم تطبيق تلك الطريقة عليهم بكل سهولة ولا سيما مع توافر آثارهم الادبية وكثرتها وتنوعها واذا قلنا ان هذه طريقة ممتازة من طرق التأليف الادبي فليس معناه ان غيرها من الطرق ليس له مزية ولا يصلح اصلا؛ فواجب على كل مؤلف أن يسلك تلك الطريقة فحسب وإلا كان مستحقا للوم والنقد، فما ذنب طريقة العرض الخفيف والتعليق العابر حتى تركها ولا نصطنعها في كتابتنا وتأليفنا وهي طريقة أدبائنا الكبار ومؤلفي العربية الاولين؟ وهل كل الناس يستسيغون تلك الاساليب المعقدة في الدرس والتحليل والبحث والاستنتاج أو لهم عقول تربط النتائج بالمقدمات والاسباب بالمسيبات؟! وهل تعميم الثقافة الادبية وتلقيها الناس مواضع العبرة والفخر من تاريخهم القومي يقتضي ذلك اللف والدوران واللي والتعطيط؟

وبعد هذا اذا اخترت انا اتباع الطريقة السهلة واختار الناقد الطريقة الاخرى فهل يكون لزاما علي الاخذ باختياره وقد كنت - مع الاسف - ساعة كتابتي لتلك الرسالة

أجل منه ذلك الاختيار^١، وشعر الأجيال الفاسي بظواهر في النهاية
وعدم أصابته في هذا السأخذ فقال : على أننا لا نفرض على
الاستاذ أن يكون اتجاها بعينه ولا تحمله على سلوك سبيل أثر
سواها، فسقط الحمل وبطل الفرض !....

ومع هذا وذاك فإن محل اتباع تلك الطريقة إذا كانت
الآثار الأدبية المدروسة متوافرة وكثيرة ومراجع حياة الشاعر
أو الكاتب بمتناول اليد وعلى طرف الثمام ، فكيف ونحن
ندرس الشعراء الأمراء والمفروض فيهم أن الشعر هو آخر
أدواتهم وناقلة كمالاتهم وأن من نبغ من صنفهم في الشعر بين
ملوك العرب كلهم أفراد قلائل ، فاما في المغرب خاصة فانما روى
البيت والبيتان والقطعة والقطعتان لهذا الملك أو ذاك الأمير ولم
يتوفر على الشعر ويكثر منه من أمراء المغرب إلا فرد أو
فردان ، ولا بد أن نقيد هذه الكثرة بانها نسبية لا مطلقة ونشير
إلى أن طبقة ذلك الشعر ونسبة بعضه فيهما مقال ، فعلى ماذا
يعتمد مدير دراسة شعر الأمراء المغربية دراسة أدبية وافية تظهر
شاعريتهم وتطلع القارىء على ما فيها من أسرار الجمال ومواطن
الابداع التي يشترك في تكوينها الأدب والحب والفروسية والجرأ ؟
هل يضرب في أودية الخيال ويهيم في عالم الاخلام ويأتي
بالفروض المحتملة وغيرها والتقديرات الممكنة وخلافها ليقدم
ظهور هذه الشاعرية المزعومة ويجلبى ما لها من أسرار معدومة ؟
أما إذا فقد نثرات كثيرة من هذا الهذيان لبعض الناس

وكنيت ابتسم ابتسامه الهز والسخرية من افعالهم في التقليد
واقامتهم الدنيا واقعاها من اجل بيت او بيتين او قطعة شعر
قالها اديب مغربي ، فيذهبون يحللون ويشرحون ويتعرفون
الى نفسية هذا الشاعر واخلاقه وروحه الادبية وعصره - زعموا -
من خلال تلك الابيات ، كما يفعل النقاد حينما يتناولون ادبيا
كبيرا له دواوين شعرية ومذهب في الشعر معروف ورسالة
ادبية سامية . ثم لا يقتصر اصحابنا على هذا بل يذهبون الى
العتب على من لم ينصف هذا الاديب ويكبره ويجعله في مصاف
شعراء العرب المعدودين

أقول اما انا فقد قرأت كثيرا من هذا الهذيان وكنيت
أبتسم ابتسامه الهز والسخرية من اصحابه فيما اخي لا تنتظر
مني هذا التعمق فاني افضل السطحية في هذا الباب (وما انا
من المتكلفين)

ولا تظن هذا رأيا جديدا لي فقد كنت قدمت منذ سنين
لبعض الابحاث الموفقة عن اديب مغربي معروف وكان صاحب
ذلك البحث يميل احيانا الى الببالغة في تقدير اثر ذلك الاديب
فلم أجد ما أخذه عليه الا هذا الامر ، ونبهته اليه بلطف قنائلا
لاني ارجو منه في ابحاثه المستقبلية الا يغلو في الحكم والتقدير
والا يجعل لغواطفه واندفاعاته القومية على عقله سبيلا او كالاما
خجو هذا

ونكتفي بما ذكرنا في هذا الموضوع وننظر في مسألة أخرى أثارها حضرة الناقد وهي مسألة ذكر المصادر؟ مصادر البحث التي ادعى ان الكتاب خال منها، ولهجة الغاضب المحقق التي تكلم بها في هذا الموضوع تدل على ان هناك حاجة في نفس يعقوب! ونحن نقول له مهلا ايها العزيز! فذكر المصادر واجب وحق وهو مما توأصى به الاحفاد والاجداد (اذا قلت بكلام خبري ان كنت ناقلا فالصحة او مدعيا فالدليل) ولكنه ليس قاصرا على الكيفيتين اللتين ذكرت بل انه يؤدي باساليب عدة:

فالباحث الغربيون هم اول من استعمل ذكر مصادر البحث في ذيول الصفحات وتبعهم في ذلك بعض الباحث من العرب المحدثين، فهي طريقة غربية جديدة وتحمل في اثنائها دليل جدتها لانها لا تنسجم الا مع الطباعة التي هي صناعة حديثة ايضا لاستلزامها ذكر ارقام الصفحات من الكتب المنقول عنها ونوع الطبع وزمانه ومكانه ورقم الكتاب في الخزنة الموجود بها ان كان نادرا او غير ذلك. وهي وان كانت لها منافعها الجمة فان لها مساوي بقدر تلك المنافع، ومما نذكره من مساوئها ان اصحابها اكثر ما يستعملونها في المسائل التفاهة والنصوص المعروفة واختلاف الفاظ النسخ وما الى ذلك

فالقاري المامي حينما يرى ديول الصفحات مملوءة بالأرقام
والاحالات يقول ان هذا الكتاب محقق ومنشور نشرًا علميًا
صحيحًا ولو قدر له ان يطالع على دخائله لوجد فيه من التجاوز
والاهمال - المقصود وغير المقصود - شيئًا كثيرًا بحيث يصير
الى الاعتقاد ان ذكر هذه المصادر انما هو للتعمية وتغطية
القصور، ولو اردنا ان نشير الى الكتب التي من هذا القبيل
والتي نشرها البحاث الغربيون والشرقيون والمغاربة ايضا لاطال
بنا الكلام ولخرجنا عن الموضوع .

وهناك اسلوب الاسلاف الكرام قدس الله ارواحهم في دار
السلام وهو ذكر المصادر في صلب الصفحات الا انهم يختلفون
في طريقة اداء ذلك، فمنهم من يشير اشارة خفيفة الى المصدر
بان يقول ذكره فلان مثلاً، ومنهم من ينقل النص بلفظه ويدل
على ابتدائه وانتهائه، ومنهم من يحيل عليه في مكانه الى غير
ذلك من الطرق ونحن نستعمل هذا الاسلوب بغير تقيد بطريقة
منه، فحين نرى وجوب التنصيص وذكر النقل بلفظه نستعمله،
وحين نرى ان الاشارة تكفى نستعمل الاشارة، ولا بد ان
القاري الاديب يدرك سر ذلك ويستحسن موقعه من الكلام ولا
سيما في الكتابة الادبية التي ينبغي ان يساير الاسلوب فيها
الموضوع في التفنن والابداع ومن محاسن هذه الطريقة انها
لا تشوش على القاري ولا تقطع عليه خيط الربط بين الافكار

المتابعة بسبب تردد نظره بين الاصل والتعليق كما في
الطريقة الاولى.

وهناك طريقة اخرى وهي ذكر مصادر البحث في اول
الكتاب او آخره وهي مستعملة قديما عند مؤلفي العرب كما
انها مستعملة عند كتاب العرب اليوم والغرض الذي هو التوثق
مما في الكتاب خاصل بها ولا ريب، وفيها فائدة زائدة وهي
حماية جهود المؤلفين من الاهتدام وادعاء الغير لها من غير خجل
ولا استحياء ولا سيما حين تكون تلك الجهود معرضة للسطو
ولا حامي لها من قانون او خلق كما هو واقع الان في البلاد
العربية كلها. فعلى ابي حال ان استخراج مكنونات تلك الكتب
- وان وقع تعيينها يحتاج الى مشقة وتعب في تحصيلها ثم
مراجعتها ولا كذلك الطريقة التي تعين مكان النص من الكتاب
وطبعة هذا الكتاب ومكان وجوده ان كان نادرا فانها تسهل
على الكسالى ومريدي الانتفاع من خدمات غيرهم ما لولاها.
لما وصلوا الى مرادهم الا بجهد وكدح واذا علمنا ان كثيرا من
هؤلاء الانتفاعيين لا يفضلون ولو بالاشارة الخاطفة الى ذكر
من سهلوا لهم طريق العمل وجدنا انفسنا منساقين الى اعطاء
النصف لهؤلاء الضحايا المظلومين من الكتاب الذين يلجؤون الى
هذه الطريقة.

ونحن كما قلنا نستعمل الطريقة الثانية وهي ظاهرة في
كتاب «امراؤنا الشعراء» وكتاب «النيوغ» وزدنا في هذا الثاني

ذكر المصادر مجملة في آخره ومع ذلك لم يكتف الناقد بهذا وقال اننا لا نذكر المصادر في كتبنا فان اراد ان نذكرها له بالكيفية التي يفضلها هو فسنروي في الامر ونجيبه كما قال ابن خلكان !

وتعجب الاستاذ من كوننا فنقل عن المغرب والتاج ابن حمويه مباشرة بدون وساطة المقرئ هنا وفي النبوغ ونقول له اما هنا فإننا ما نقلنا الا قولا مشهورا وتعليقا معروفا لادباء المغرب مع نسبته لصاحبه وقد نقلناه هو وغيره في النبوغ وفي آخره ذكرنا مصادر كلاهما ومن جملة ما نفج الطيب للمقرئ ولم نذكر طبعهما لا رحلة ابن حمويه ولا كتاب المغرب ومعنى ذلك في المنطق السليم ان ما نقلناه عن هذين المؤلفين وغيرهما منا لم نذكره في المصادر الاصلية للكتاب كله بواسطة هذه المصادر .

حقا اني لم اكن اعرف لماذا يضع الناس الشروح المطولة والحواشي والتقاريرات والآن فهمت !

وتعلق صاحب الذيل والتعليق بناشئة الادب فقال ان هذا العمل فيه تضليل لهم والحقيقة انه ان كان هناك تضليل فانما هو لشيوخ الادب لا لناشئته لان اولئك هم الذين يشتكون لا هؤلاء وللمناسبة فقط اذكر انني في بعض الآثار الادبية التي اثبتتها في النبوغ سهوت حقا ان اذكر مصادرهما وهي مصادر غريبة لا تمت للادب وتاريخيه بصلة والى الآن اري جمر

هؤلاء الشيوخ تقف في عقباتها ولا تتجاوزها.

ومما أعجبني من كلام الناقد أنه حين ذكر المغرب ورحلة التاج ابن خنوية قال انهما لا يوجدان في خزائن المغرب ولا في مكتبة الاسكوريال وانا افهم ما يريد فلذلك اقول له ان هناك غير خزائن المغرب ومكتبة الاسكوريال ولم يا اخي تحصر مجالي في هاذين المكانين فقط وقد يكون في مصر والشام ولندن وباريس من يمدني بما في خزائنها ولا تدري؟ ومالك تذكر الاسكوريال وتنسى مدريد وفيها ما ليس في الاسكوريال لو عرفت؟ والمغرب؟ الا تعرف ان فيه كتباً مهمة في التاريخ المغربي لا يزال الناس يظنون انها مفقودة مطلقاً؟ ولذلك فاني لا ادعي استيعاب كل ما في المغرب فاحري ما في غيره وان تفضلت علي بهذا التقدير العظيم لتحصرني في ذلك المجال الضيق!

واخيراً ان كان صديقنا الفاسي يقول ان النبوغ خال من المصادر فان صاحب المصدر العظيم للاداب العربية جلمة والناقد البصير بهذه الشؤون وهو العلامة بروكلمان يقول انه استفاد من ذلك الكتاب واسف لما فاتته منه في اجزاء كتابه المطبوعة وانه يوصي زملائه من المستشرقين بالاستفادة منه.

وننتقل إلى مأخذ آخر شاء الناقد أن يفرض وجوده
ليبنى عليه العلالي والقصور والا فهو لو لم يفعل ذلك غير قادر
على إلصاق هذه التهم بالكتاب من عدم ذكر أفراد كان يجب
أن يذكرها فيه واغفال اشعار أخرى لبعض من ذكر لهم فيه
اشعار وغير ذلك من التمحلات وهذا المأخذ هو ما دعاه بالاحاطة
والشمول ، ويعني أن الكتاب لم يحط بجميع امراء المغرب
الشعراء ولم يسجل جميع اشعار من ذكر فيه

وقبل أن نأخذ في تفاصيل هذا القول نتساءل من أين
أتى به ومن الذي اوحاه اليه ؟ أن كان كتاب امراءنا الشعراء
فهو خال من هذه الدعوى بري منها برائة الذئب من دم أين
يعقوب حتى أن هذين اللفظين « الاحاطة والشمول » لا يوجدان
به ولا يمكن أن ينسبا اليه أصلاً وان كان افتراضاً
افترضه وسلمنا اتخذه للإشراف على الكتاب من عل حتى يمكنه
أن يقول فيه كيت وكيت فالحكم للقراء المنصفين على هذه
الاستاليب (المستقيمة) من النقد والطرق (الحكيمة) في البحث
والذي أثار حرك به يا استاذ ، أن هذين اللفظين وهما
الاحاطة والشمول لم يخطرا ببالي منذ مدة طويلة جداً ، منذ عهد
الازهري والمكودي ، وبعد ذلك لم يبق لهما صدى في ذهني
حتى ذكرتني بهما الآن . ومعنى هذا اني بعد أن نسيتهما على

الأقل صحت أن كلامي بميزان الحقيقة وأكره المبالغات جل الكراهة ولم أعد أرى الإحاطة والشمول يتوفران في عمل من الأعمال وخاصة تأليف الكتب ولا سيما في المواضيع العمومية كالادب ؛ ذلك النبع الفياض الذي يتفجر من قلب الإنسانية العميق الغور العظيم السعة فكيف إذن تمكن الإحاطة والشمول في موضوع جل مصادره مفقودة والموجود منها متفرق هنا وهناك؟ وهل تعتقد أنك بذيلك وتعليقك قد احطت بالموضوع بعدما جمع منه الكتاب وعلى طرقك لجميع الأبواب وقناعتك بما فضل عنه في الحساب ؟ .

أما الرؤساء العزفيون الذين هولت بأمرهم واستعظمت عدم ذكرهم فإني أتعجب منك في رأيك هذا كما تتعجب مني في اغفالهم «وإنا أو أياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين» .
وبيان هذا الاختلاف للمقاري المستقل برأيه ليستطيع أن يحكم في القضية بنفسه أن الفقيه أبا القاسم العزفي، وبنته من بيوت العلم والدين والرياسة في سبتة. كان قد استقل بهذه المدينة في أواخر أيام الموحدين لما ضعفت دولتهم واضطرب أمرهم ثم لما تمكنت الدولة المرينية من ملك المغرب استتبعته فحكم سبتة هو وولده بالتبع لها ثم انتهى أمرهم بالعزل والدخول في غمار الناس ،

فهؤلاء الولاة ، ولاة سبتة ، هم الذين يريد الناقد أن يعتبرهم من أمراء المغرب ويفرض علينا أن نعتبرهم

كذلك أو نذكر الادباء منهم في كتاب امراؤنا الشعراء ونحن قد ذكرنا في النبوغ ما رضىناه من آثارهم الادبية شعراً ونشراً وترجمنا فيه لنا بفتحهم الفذ ابي العباس بن ابي طالب ثم نشرنا له في مجلة السلام ترجمة موسعة كان لها صدى ادبي في الشرق العربي مما دعا الى معارضة قصيدته البائية هناك من احد امراء الشرق الكبار كما سننوه بذلك في فرصة اخرى . . وكان هذا كله قبل وقوفنا على مخطوطة الاحاطة أو مختصرها وفيها تراجم اخرى لادباء هذا البيت المجيد وقصائد ومقطوعات شعرية فالتفتنا في النبوغ ولكننا لم نفكر قط في ذكرها ضمن مجموعة امراؤنا الشعراء . لان اعتبار العزفيين امراء للمغرب وحشدهم في عداد الدول التي تداولت حكم المغرب وذكر اشعارهم في كتاب امراؤنا الشعراء على هذا الاساس غير ممكن عندنا ولا مسوغ له في نظرنا لا من جهة الواقع ولا من جهة الاستكثار الذي يحرص عليه الناقد ويتذرع اليه بذريعة الاحاطة والشمول . فالواقع ان هؤلاء العزفيين لم يكونوا في وقت من الاوقات امراء للمغرب ولم ينظر اليهم احد هذه النظرة قط فابن القاضي يذكرهم في جملة الفقهاء وان وصف بعضهم بالامارة عراً واجب الخطيب تارة وتارة ومؤرخو المغرب يذكرونهم في جملة الولاة البارزين والجميع يصفهم بالرياسة ويذكرون حسن امرتهم وعدل سلطانهم وهم يعرفون ان من قام به وصف اشتق له منه اسم . ومع ذلك لا

يسمونهم بالامراء والسلاطين كما ادعى الناقد فهو في عهده
ونسأله هل وصفهم احد بالملوك فهذا الذي بقى من الانساب
الملكية لم يخلعه عليهم !..

ومع فرض انهم ملوك لا امراء فقط فالناقد يعرف انهم
كانوا ملوكا لمدينة من مدن المغرب وفي اكثر الوقت
بالتبعية لا بالاستقلال، والكتاب موضوع لشعراء الملوك والامراء
من الدول التي تعاقبت على المغرب كما في اوله ولو انخرم
هذا بذكر من لم تكن هذه صفته لجاز ان يقال ما بال
الرؤساء العزفيين لم يذكروا كيف ونحن لما ذكرنا الامير
ابا بكر بن تفلويت في الدولة اللمتونية احتجنا ان نوجه
ذلك بكونه صهرهم ومن قبيلهم.

ومعلوم ان المغرب لم يبيل بعهد من عهود ملوك الطوائف
حتى نعتبر رؤساء سبتة او غيرها ملوكا او امراء فيه بل انه
كان دائما وابدا - في غير اوقات الفتنة طبعاً - وحدة لا تتجزأ
وكان عرشه الرفيع يحتله ملك او خليفة او امير هو رمز تلك
الوحدة، ولم يزل كذلك حتى بعد ان قسمته سياسة الاستعمار
الغاشمة وجعلته مناطق ثلاثاً؛ فهو كله يدين للملك واحد وليس
هنا او هناك الا من يعمل باسمه ويحكم بامره ... ولكن
الناقد يحب ان نمزق اشلاء هذه الوحدة ونزيد في عداد دول
المغرب دولة لنستكثر من الشعراء الامراء او ليصح نظره في
عدم احاطة الكتاب وشموله !..

وإذا كان الناقد يحرص هذا الحرص على ادخال العزفيين في امراء المغرب فليت شعري ما عدا به عن الدلائيل واستدراكهم علينا وهم احق بذلك من العزفيين لانهم اشتركوا معهم في قول الشعر واتسام كثير من فضلائهم بسمه الادب وزادوا عليهم بانهم ملكوا قاس ومكناس وناحية الغرب الى تادلا وحاربوا سلطان السعديين وهزموه واقتحموا سجلماسة وبقيت لهم السيادة على اماكن فيها حتى بعد ان خرجوا منها صلحا، وعلى كل حال فقد اطبقت كلمة العلماء والمؤرخين على مدحهم والتنويه بدولتهم وناهيك براءة الامام اليوسي في البكاء عليهم لما اوقع بهم مولاي رشيد...

فلماذا اسقط الناقد ادبائهم من الحساب ولم يستدركهم على الكتاب؟ واين احاطته وشموله اللذات تورك عليهما ليأخذنا بعدم ذكر العزفيين؟ وهل كان العزفيون وهم ولاية مدينة اولي بالامارة والملك من الدلائيل وهم ولاية اقليم فيه عاصمة البلاد؟.. واين ذهب به عن الفقيه ابي حفص عمر الوقاش وقد استقل بتطوان وهي قرية من سبتة وقال الشعر وادعى الخلافة؟.. أليس هذا اخلا لا بشرط الاحاطة والشمول يتوجه على الناقد ويصحح فيه ما قالته العرب: (رمتني بدائها وانسلت)؟..

لكني انا لا اعتبر العزفيين ولا الدلائيل قاحري الوقاش من اصحاب الدول التي حكمت العرب واستدفع لها ملكه

حتى يكون شعراؤهم من الذين يشملهم الكتاب ويدخلون
في موضوعه فلذلك لم اذكرهم فيه ولم اتجمل بهذا الاستكثار
الذي يقصد اليه الناقد لان لي خطة درجت عليها ونظرا عملت
بمقتضاه فلا ملوك الا الملوك المعروفون ولا امراء الا امراء
الدول الشرعية والقصد قطع لسان الخصم الذي ينكر علي هذا
الوطن كل فضل ومزية ادبية، فهذا دليل من نوع آخر يثبت
رسوخ قدمه في الشعر والبلاغة وهو مجموع من شعر الملوك
والامراء الرسميين متخير منخول لا تزيد فيه ولا تعمل ولو
كان المراد الملء والاستكثار لما اقتصر الكلام على العزفيين
فقط بل لذكر الدلائيون بالاولى والاخرى ولذكر كل رئيس
وحاكم ووزير قال شعرا وانتج ادبا وهم في المغرب كثير.



الى هنا انتهى القول في القسم الاول من انتقادات
الاستاذ عبد الرحمن القاسي، وقبل نظرنا في القسم الثاني منها
نشير الى ان هذا القسم في غالبه انما هو امتداد لفكرة
الاحاطة والشمول التي الصقها الناقد بالكتاب إصافاً وهو
بريء منها.

وانظر اليه كيف يبتدي هذا القسم: «عقد مؤلف امراؤنا
الشعراء الفصل الاول لانتاج امراء الدولة الادريسية. ويبدو
المؤلف في هذا الفصل حريصا على ان لا يغفل من منشور
ومنظوم المولى ادريس قليلا ولا كثيرا» وهذا تقول منه
وتمحل ليتوصل الى غرضه من الذيل والتعليق، فما بنا من
حرص على عدم اغفال شيء من منظوم الامام ادريس ومنثوره
ولا منظوم ومنثور غيره من الامراء الذين ذكرناهم في الكتاب.
والقاري الاديب الذي يمكنه ان يتتبع فصول الكتاب وآثار
الامراء المذكورين فيه يجد اننا كثيرا ما نعبر في ذلك بقولنا
(ومن شعره، ومن نثره، ومن قوله، وله) ويجد ظاهرا بينا اننا
نجتزئ في بعض الآثار النثرية بجمل منها وعبارات منتخبة كما
فعلنا في رسالة المامون الموحدي ورسالة الامير محمد العالم
العلوي، ويجد واضحا جليا اننا نظرح بعض الآثار الادبية لبعض
الامراء ونذكر المختار منها فقط كما فعلنا في انتاج المنصور الذهبي

وهكذا كان حرصنا دائما لا على الجمع والاحاطة بل على
 الاختيار والانتقاء وعرض اجل الآثار الادبية التي لهؤلاء الامراء.
 وقد كنا اثبتنا في الكراسة الاولى لدى تدويننا لهذه المجموعة
 ابياتا ومقطعات كثيرة. كان نصيبها بعد ان يبضنا الكتاب
 الطرح والاهمال لعدم استجادتنا لها والى الآن لا يزال في
 نفسنا شيء من بعض الابيات التي اثبتت فيه. فهذا الذي لم
 يشأ الناقد ان يفهمه ولم يرد الا ان يجعلنا نريد الاستيعاب
 واننا مع ذلك لم نستوعب...

الافليهم، وان كان القاري قد فهم، ان مقصودنا هو
 اطلاع الناس على ناحية خصبة من الادب المغربي وازالة
 الغشاوة عن بعض الاعين التي تنكر على المغرب والمغاربة
 ان يكون لهم قدم في الشعر والبلاغة، وذلك انما يكون بجودة
 المعروض وتنخله واختياره لا بكثرة وتفاوته.. فالشعر الذي
 يحتاج الى الاعتذار عنه وكتابة كلمة (كذا) بازائه (1) لا محل
 له في هذه المجموعة.. والشعر الذي تضطرب بعض ابياته
 ويحتوي على عيب فني كذلك نصيبه الاقصا والابعاد، لاننا لا
 نفاخر الناس بالعيوب وما يعتذر عنه، وعليه فاننا في قطعة
 مولانا ادريس التي اولها: لو مد صبري بصبر الناس كلهم..
 اقتصرنا على اربعة ابيات وكذلك فعل بعض المؤلفين غيرنا

(1) كما فعل الناقد في بعض ما استدركه علينا.

ولم نر والبشيين الباقيين لما في روايتهما من اختلاف اللفظ
ثم لتكرر لفظ الهم فيها مع وقوعه في البيت الثاني والرابع
وتشابه معناه مع معنى الايات الاربعة في الجملة ثم لعيب
الايطاء الواقع بين جزعى في البيت الاول ودائم الجزع في
البيت الرابع في رواية الزيادة كما اورده الناقد نفسه - فاسلم
الروايات هي التي ذكرنا .

واما التصرف في القطعة بالتقديم والتاخير كما فعل الناقد
لينسجم المعنى او ابدال لفظ الجزع وهي الواقعة في رواية
الزيادة بالهلع لتجنب العيب كما يجب ان نفعل لئلا نقدم في
باب الافتخار اثرا معيبا - فهذا امر لا تحتمله الامانة العلمية
باطلاق وقد انكر الناقد ما قلناه من عدم الانسجام في الايات
بالزيادة ثم سلمه ضمنا اذراح يتصرف فيها بالتقديم والتاخير
ليتم هذا الانسجام ! وبعد ذلك رجع يقول ان الانسجام واقع
بدون هذا التصرف :

وضاع العلم بين اري وعندي فيا لله من هاذي الدعاوي
ومن هذا القبيل ملاحظة الناقد علينا عدم التنبيه على ان
الايات الثلاثة (اليس ابونا هاشم) التي انشدها المولى ادريس
ليست له كما فعلنا في بيتي (لا ايات) ابي الشيص الخزاعي
اللذين نسبا الى المهدي بن تومرت غلطا . ونحن نكرر له ان
هذا المجموع ليس كتابا لتصحيح اغلاط الناس والتعليق على

عذب الآخرين وأما هو فإنه من الزهور ذراعي فيها الأسحار
وتناسق الألوان لتقدم إلى الراغبين والمشتوقين ، أما بيتا أبي
الشيخ فأنما نبهنا عليهما لكوننا وقعنا في الغلط الذي وقع فيه
الغير فنسيناهما في النبوغ إلى المهدي ولما واتتنا الفرصة
لنصح غلطنا نحن اهتبلناها ولو قدر فأعيد طبع النبوغ منقحا
لاختفى البيتان والتنبيه معا من هذه المجموعة.

وتعرض الناقد لذكر ابراهيم بن ادريس المعروف بالمؤيل
في المجموعة للشك في مغربيته ولم يكفه قول المؤرخين ان
(اصله من المغرب) وأنه انما (سكن قرطبة) فقط إلى غاية
معينة وهي تسيير أي نفي ابن أبي عامر له من الاندلس (فيمن
سيره من اهل بيته بعد قتل الحسن بن كنون كبيرهم) فهو لا
اهل بيت واحد وهم الاشراف الادارسة الذين نقلوا مع (كبيرهم)
الحسن بن كنون إلى الاندلس وقد نص على هذا الفرد منهم
بالخصوص ان اصله من المغرب ولكن الناقد مع ذلك لا يسلم
انه مغربي (ولو طارت معزة !) فاذا كان غير مغربي فلماذا
رحله إلى المغرب ! واذا كان كبيرهم وهو الحسن مغربيا فكيف
لا يكون اتباعه مغاربة ؟ ان التجنيس والحماية لم يكونا معروفين
في ذلك العهد ، حتى نقول ان هذا الامير الادريسي قد بدل
جنسيته او اتخذ حماية اجنبية فلم يبق مغربيا ... على انه مع
تطريق هذا الاحتمال الذي جرت به النكتة فهذا المنصور بن أبي

عامر قد عاد فبزع عن الشريف هذه الخسبة أو الحماية وردة
الى مغربيته !...

ثم قال الناقد انه لا يرتاح لجعل القطعتين اللتين اوردناهما
لهذا الامير من قصيدتين مختلفتين كما يعطيه صنيعنا، واننا لم
ننقلهما عن ابن ابار الذي توقف في كون الثانية من الاولى
ام لا. ونظمته الى اخنا نقلنا عن ابن ابار مباشرة وهذا لفظه
في الاولى: (وهو القائل يخاطب المروانية) وفي الثانية: (وقال
الحيدى له قصيدة طويلة يمدح بها مؤيد الدولة هذيل بن خلف
ابن رزين صاحب القلاع ويهجو غيره) وذكر منها ثلاثة ابيات
الثالث منها حذفناه لاننا لم نستحسنه ثم قال: (ومنها) فأورد
البيتين الباقيين ونص على انه لم يذكر منها غير هذه وتوقف
في كونها من الاولى ام لا

وانا لاختلاف السياق الذي عند ابن حيان من كون
ابياته في مخاطبة المروانيين والسياق الذي عند الحيدى من
كون القصيدة في مدح مؤيد الدولة مع تصريح القطعتين معا
والعادة ان التصريح وخصوصا عند المتأخرين لا يكون الا في
اول القصائد ولا يتكرر في اثنائها رجحت انهما قصيدتان
وكفى...

وحضة الناقد الذى طرق هذه الاحتمالات كلها في مغربية
الامير ابراهيم بن ادريس وادار وجوه البحث في قضية هاتين
القطعتين، لم يكلف نفسه قليلا من العناء في البحث عن ترجمة

الشريف عبيد الله بن يحيى بن ادريس ليعلم انه ليس بمغربي
 وانه قرطبي قح ولا يصح عده في جملة الامراء المغاربة من
 الادارسة وهذا نص العلامة ابن الفرضي في تاريخ علماء الاندلس
 على ذلك: «من أهل قرطبة، يكنى أبا عثمان سمع من ...
 وكان متفنناً في ضروب العلم وكان الشعر أشهر ادواته ...
 شريفا بنفسه وبسلفه ... ولي احكام الشرطة ثم ولي الوزارة ..
 وتوفى رحمه الله في انسلاخ ذي القعدة سنة 352) ولكن الناقد
 حين كان همه الملاحظة علينا بأي صفة، كان يبحث ويتعجب
 فلما جاء للاستدراك تغافل عن كل ما يجب من التحري
 والتثبت والغي النصوص الصريحة في عدم اندلسية هذا الشريف
 ليتسأل عن عدم عده في امراء الادارسة الشعراء، بينما كان
 يؤول نصوصا اخرى تدل على مغربية الامير ابراهيم بن ادريس
 ليجعله غير مغربي ويلاحظ علينا في ذكره .



ويخلص الناقد الى الفصل الثاني المتعلق بامراء دولتي زناتة ولتونة فيشير عاصفة في فنجان - كما يقولون - من اجل كلمة، وهي كلمة حق لا غبار عليها، وذلك اننا قلنا ان التاريخ لم يحفظ اثرا شعريا من نظم امراء الدولتين لغلبة العجمة عليهم ولعدم استقرار الاحوال في ايامهم حتى يتشققوا او يتأدبوا فينكر هو هذه العجمة، ومع انها راجعة لامراء الدولتين معا فانه يلصقها باللمتونيين فقط ويقول كان الاولى ان نعلل عدم قولهم الشعر بالصيغة الدينية التي كانت تغلب على دولتهم فيا لله! ننكر ان تكون في القوم عجمة - وهم بربر - ونلصق بالدين تهمة من اعظم التهم وهو تنافيه مع قول الشعر! كان الشعر لم ينشأ في بحبوحة الدين ولم يكن الضحابة والسلف الصالح يقولون الشعر وهم اشد الناس قدينا

ثم يذهب الناقد ليقوم الدليل على عكس ما قلنا فلا يأتي بشيء، يقول انه سيتخطى بالذكر اللمتونيين الى اللمتونيات فلم يتخطاهم؟ الجواب واضح وهو انه لم يجد بينهم من قال شعرا او انتج ادبا، فاذا اتى الى اللمتونيات ذكر فتيات كن يروين شعرا ويحفظن ادبا، اريها السهي وتريني القمر!.. ان الخروج عن الموضوع يؤذن بالافحام كما يقول علماء الجدل ونحن ايها الاستاذ في صدد من قال شعرا من نظمته من اللمتونيين لا من حفظ شعرا او روي ادبا.

ودسح الناقد في بحر الكلام عن يوسف بن تاشفين
والمعتمد بن عباد وما حمل به خصوم المغرب واعداً الاسلام
على يوسف وما شوخوا من سمعة اللمتونيين وطعن مؤلفي
كتاب المطرب في ادب المغرب وذلك موضوع فرغنا منه قبل
بضعة عشر عاماً فما احسن ما تقوله العرب في الصدى «صمى
اثة الجبل مهما يقل يقل»

وتطرق الناقد في الفصل الثالث للكلام من جديد على
الاحاطة والشمول فاستدرك ابياتا للمهدي بن تومرت نقلها عن
الصفدي والعجب كل العجب منه كيف ابعد النجعة وترك
ابياتا له في القرطاس بجانب الابيات التي ذكرناها له، فما دام
همه هو لا نحن الجمع والاستيعاب فلماذا تركها ولم يستدركها علينا؟
لكننا كما علم القاري ما كان وكدنا قط في الكم بل
في الكيف، وهذا من اوضح الادلة على ذلك فلينظر القرطاس
كل احد، ليري اننا اخذنا منه ثلاثة ابيات للمهدي وتركنا
بازائها ثلاثة ابيات اخرى له بل مساجلة ربما تكون برمتها
من نظمه، لم ننقلها لاننا لم نرد ان نكون كحاطب ليل لا سيما
ونحن نقيم الحجة على المنكرين لادب المغرب.

وتورك الناقد على قولنا في الامير موسى بن عبد المؤمن
«اذ كان مجهول الترجمة» فقال كيف ساع لنا ان نقول (انه)
مجهول الترجمة ونحن ننقل عن القرطاس ولا نزيد عليه
والقرطاس قد طبع مرارا وذلك بالفاظ يلزمها كثير من العقل

في معمل الذوق المهذب فلنتركها ولننظر في الموضوع.
 ان حضرة الناقد الذي لم يترك سلماً الا توقله لاجل
 الملاحظة علينا بما رأى القارىء بطلانه، قد اتخذ وسيلة اخرى
 في هذه المرة لاجل الملاحظة وهي تبديل كلامنا بغيره فنص
 كلامنا هو هذا «اوردت هذه الحكاية لزيادة التعريف بكتابتها
 اذ كان مجهول الترجمة تقريباً وهو يقول اننا قلنا انه كان
 مجهول الترجمة يعني ولم يبق مجهولها ومن ثم تأتى الملاحظة
 مع ان الفرق ظاهر بين اذ كان وانه كان. فالعبارة الاولى
 معناها حيث انه مجهول الترجمة والثانية معناها ما اراد ان
 ينسبه اليها ليلاحظ عليه وشرح ذلك يطول.

وما قاله عنا في هذا الصدد يصح ان نقوله عنه فيما ذكره
 هو عن الامير موسى بن محمد بن يوسف ابن عبد المومن
 المترجم في مخطوطة الاحاطة من كون ترجمته كأديب (كذا)
 شاعر مجهولة حقاً، ولاكن لا تتعلق بهذه السفاسف ونوافق الناقد
 من حيث لا يود هذه الموافقة على ان ترجمة هذا الامير الشاعر
 لا تزال مجهولة لحد الان فان ما اثبتته له في الاحاطة من نظم
 ليس بشعر عندنا ولا عند احد من اهل الفن الادبي وهو هاذان
 البيتان اللذان انشدهما له ابو المطرف بن عميرة يخاطب
 بهما ابا الحسن بن حريق ليحثه على نظم الشعر في عروض الخبب:
 خذ في الاشعار على الخبب فقصورك عنه من العجب
 هذا وبشوا الآداب قضا بعلو محللك في الرتب

ويلحق بهذه الترجمة ترجمة الأمير منصور بن عمر بن عثمان بن يعقوب المريني التي نقلها الناقد عن مخطوطة الاحاطة بنصها وفصها ثم قال انها عزيزة المثال.

الله اكبر! ما لاحدكم يبصر القداة في عين اخيه ولا يبصر الجذع المعترض في عينيه! لما نقلنا ابيانا عن القرطاس وكلمات مهد لها بها صار الناقد يتندر علينا بالاغتراف من بحر الغير وحين نقل هو ترجمته بحذافرها عن ابن الخطيب و (ناقور) الفاظه يصم الاذان، لم يكن يغترف من بحر الغير بل صار يمتن بها ويقول انها عزيزة المثال!

ثم اورد شعر هذا الامير وهو قوله يخاطب ابن قطبة :

سوف تنال المنى وترقى مراقبي العز والمعالي
فانت عندي بها حقيق يا حائز الفضل والكمال
وهذا النظم عند صاحب الاحاطة ثلاثة ابيات بزيادة بيت في الوسط وهو:

اذا حططنا بارض فساس وحكمت في العدا العوالي
فلا ادري لم حذفه الناقد وهو الحريص على الاحاطة والشمول؟..

واني لاعجب من امر هذا الرجل، وهو الاديب الحصيف كما يدعى كيف يرى ان هذه الانظام اشعار وكيف يريد منا ان نذكرها في معرض المباهاة بادب المغرب الرفيع وكيف لم يدرك اننا نخطيناها وامثالها عمدا لا لكوننا لم نجد لها كتخطيه المتنبيين للمتونيات لكونه لم يجد لهم (ولا لهم) اشعارا، بل

لأننا لم نرضها ولم نرضاها شعرا ولم نرو في المجموعة ما يشابهها
من النظم العاري عن كل معنى شعري، والعرب بالباب،
وقد رأينا نقلنا عن مخطوطة الاحاطة في غير هذا الموضع من
الكتاب لو امعن النظر، فكان يدري اننا غنيا عن هذا النظم
الثافه لا سيما وان هذين الفصلين فصل الموحدين وفصل المرينيين
عامران في الجملة بالامراء الذين لهم شعر يستحق ان يطلق
عليه هذا اللفظ - على اننا حتى لو لم يكن الامر كذلك لم
نكن لنستكثر بما ليس تحته طائل ولا تتحلى بما يكون
العطل خيرا منه ولو اتسع لنا المجال لبينا كيف حذفنا ذكر بعض
الامراء وبعض « اشعارهم » من المجموعة وهم من غير هاتين
الدولتين المنجبتين .

وقد سئمت من كثرة ذكرى للاختيار والانتخاب وان ذلك
هو رائدي في هذه المجموعة لا الجمع والاستيعاب كما يريد
الناقد، ولذلك فاني لاجل الاختصار، اقف القاري على ما ذكره
الناقد فقط من « اشعار » السلطان ابي العباس المريني المحذوفة
عندي ليرى رأيه في هذه الذخائر الادبية التي اهملتها فاولا
قوله :

يا عاذلي دع عنك عدل العادل

واخلع عذارك في الحبيب الواصل

واذا ذكرت عشية بمحاسن

فاذكر عشاينا بدار العادل

فهذا «الشعر» فضلاً عن كونه مثل قول الأعشى :

شاوم مثل شلول شلش شلل. وقول المتنبي

فقلقلت بالهم الذي قلقل الحشا قلاقل هم كلهم قلائل

لا كبير معنى فيه يله الاضطراب الذي في اوله من مخاطبة
العاذل بطرح عدل العاذل فهو يجعل الشخص الواحد شخصين
وانت خبير بظراية الادباء للجناس المتكلف اذا سلم من
الايراد فكيف به مع هذا ؟ ..

ثانيا قوله « وهما البيتان اللذان قالهما في فاس وخاطب
بهما كاتبه ابا الحسن بن الخطيب خلاف ما يعطيه صنيع
الناقد من انهما نظم واحد :

يا فاس اني وأيم الله ذو شغف بكل ربع به مغناه يسبيني
وقد شغفت بقرب منك يا أملي ونظرة فيكم بالانس تحييني

فليلاحظ القاري الاديب هذا التفكك بين الصدر والعجز
في البيت الاول وهذا « بكل ربع به مغناه » وهذا « يا أملي »
التي تذكرنا « بياذكي » في قول ابن عاشر رحمه الله .

محال الكذب والمنهى كعدم التبليغ يا ذكي

ثم ليقارن كل ذلك بالابيات الجميلة التي اوردناها له
مقتصرين عليها :

أما الهوى يا صاحبي فالغنى وعهدته من عهد أيام الصبا
 ورأيت قوت النفوس وحليها فتخذته دينا الي ومذهبا
 ولبست دون الناس منه حلة كان الوفا لها طرازا مذهبها
 لكن رأيت له الفراق منغصا لا مرحبا بفراقنا لا مرحبا

فبالله عليكم أيها القراء هل تجدون ادنى مناسبة بين هذه
 القطعة الوجدانية المشرقة وبين تلك التلفيقات التي ضربنا عنها
 صفحا ولم نشوه بها وجه ادبنا الاميري الواضح ؟

ولعلي سأخالف ما التزمت فاذكر للقاري شعر السلطان
 عبد العزيز بن ابي الحسن الذي اهتمته في المجموعة ولاحظ
 الناقد على عدم ذكره ولكنه طواه فلم ينشره هو ايضا كانه
 شعر بما في تسميته شعرا من المجاز (المطلق) الذي ليست له
 علاقة! وهو قوله مذيلا على بيتي والده المذكورين في المجموعة.
 وارغب خالقي في العفو عني واطلب حمله يوم الحساب
 وارجو عونه في عز نصر على الاعداء مخروس الجناح
 وعبدك واقف بالباب فارحم عبيدا خائف الم العقاب

فليلاحظ القاري الاديب هذا الاستعمال العامي لارغب في
 قوله «وارغب خالقي» ثم ليقل لي هل هذا ختم لدلائل الخيرات
 او هو شعر طاعوني من ديوان القائل :

الله حي صمد وباق سبحانه ذو كنف وواق
 يا رب نجنا من الوباء الطعن والطاعون والبلاء

وما أشبه هذا الدليل بالدليل الذي نحن بصدده!

وقد أثقلنا هذا الجو الشعري الخائق فصرنا نُدلق إلى هذه
الامثولات وكاننا نجر أنفسنا جراً فلتتدرع يا قارئ العزيز
بالصبر فانا على وشك اراحتك من هذه العيضة قال الناقد،
والمعروف ان للسلطان ابي عنان مقطوعات غزلية متناثرة في
مختلف المصادر ولكن صاحب الكتاب لا يفتح الا بالنزر اليسير،
وبذلك حرم قارئه من خمس قفف ضرب فيها ابو عنان على
هذا الوتر حين يقول:

الف الفراق فؤادي	فعدا اشتياقي نامي
واطال لهف تشوقي	فبدا اضطباري نائي
وثوقدت نار الحشا	فطلقت دمعي هام
بالله يا عرب النقا	ردوا علي سلامي

فاما قوله ان هذه المقطوعات متناثرة في مختلف المصادر
فليس بصحيح بل هي مجموعة في الجذوة عند ابن القاضي في
صحيفة واحدة أخذ بعضها برقاب بعض وذلك ايضا من اصدق
البراهين على اننا فتخير من اقوال هؤلاء الامراء وناخذ ونرد لا
ان ما لم تثبته فائنا ولم نطلع عليه حتى يستدركه علينا واما
كوني حرمت القاري من هذه النتف الخمس فلا يصح الا اذا
كنت استهين بدوق القاري واتهم اديه وحاش لله فان قارئ

عزيز علي، وقد أرحت عنه ثقلاً حيث لم أر وله هذا «طلقت
دمعي، وبقية هذه المقطوعات الخمس التي منها أيضاً.

يا عاذلي في غرام دعني وطول الملام
دع مستهما كئيباً جفاه طيب المنام
وجسمه قد ثبأدى عليه قرط السقام
وحبه «لن يحول» مخلداً «للقيام»

فكيف يرى قارئ هذا «دعني وطول الملام» هو ينهاء عن
الملام، ويقول دعني وإياه وكيف يرى هذا «لن يحول» في
حكم العروض، وكيف يرى هذا «مخلداً للقيام» في حكم
الصناعة الأدبية؟ ثم ألا يعذرني في تعميض عيني عن هذه النصف
الخمس وصرف اذني عن هذا «الوتر» الذي ضرب عليه أبو
عنان مكتئباً بما هو حقيق أن يعد شعراً من نظمه؟ بلى! فاذني لا
اكتفك ايها القاري أن في نفسي شيئاً من احدي القطع التي
اثبتتها له في المجموعة وكم فكرت وقدرت حين الجمع والتأليف
ولو استقبلت من امري ما استديرت لجعلتها تنغسا ستاً وزيد في
شظرنج الاستدراك بغل!..

وهنا ينتهي الناقد ويلمح الى التقصير في ادب السعديين
والعلويين والى مصادر الادب المغربي والكلام في ذلك طویل

حريص فلنتركه الى سئوح فرصته ثم يقول انه لم يهدف بهذا
الذيل الى تنقيص او تهجين (اطرق كرا).

كل امري حسن في عيت والده

والخنفساء تسمي ابنها القمر

وقد رأى القاري ان هذا الذيل اشبه ما يكون بذنب

العصفور يمسك به الصبي فيفلت العصفور من يده ويطير مخلقا

في الاجواء مخلقا الذنب في يد الصبي...



إن كنت ريحا فقد لاقيت اعصارا

ذكر ابن الخطيب ان القاضي ابا الحسن النباهي المدعو بجعسوس كان مثلا في الغفلة والغباوة وكان يكثر في كلامه من ذكر هذه الكلمة جعسوس (والجعسوس في اللغة القصير الدميم) فذات مرة قال لبعض عدوله: تنكروني ما يتردد في كلامي من لفظ جعسوس كأنه ليس من كلام العرب بل من الفاظ القرائ! فقالوا له أما في كلام العرب فريما واما في القرائ فلا نعرفه. فضحك وقال: سبحان الله اعيدوا النظر! فقالوا والله ما نعرفه، فقال الم يقل ولا تجعسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا! فقالوا والله ما قال الله ذلك قط، وانما قال ولا تجسسوا قال فاسترجع وقال حفظ الصغرا..

ونحن نترحم على روح هذا القاضي المسكين ونرثي لكل شخص مثله يريد ان يرتفع فيقع ويحاول ان يستشهد لصابته فيشهد الناس على خطئه.

هذا حضرة الناقد لما الزمناه بان شروط دراسة شعر هؤلاء الامراء غير متوفرة، صار يقول انه لم يرد الدراسة وانما اراد العرض الادبي المنهاجي، ثم اتى بنص كلامه ليستشهد على ما نفاه

وهو قوله «ولعل في حياة الامراء السادة امراء الدولة الموحدة ما يهدي الباحث الى مكان هذه الشاعرية، وأخلق بحياة اصطلاح على تأليف عناصرها الادب والغرام والفروسية والمدام ان تكون حرية (بالدرس والتحليل) في هذا المقام».

فاسمعوا وعوا ايها الناس! لقد تبرع الاستاذ بعد الدرس بالتحليل وهو ينكر ان يكون قال شيئا من ذلك؟
هذه مسألة!

ومسألة اخرى، لاحظنا على الناقد وثوبه من امراء ما قبل الدولة الموحدة اليهم وتخصيصهم بإمكان دراسة اثارهم الشعرية في قوله «ولعل في حياة الامراء السادة امراء الدولة الموحدة ما يهدي الباحث الى مكان هذه الشاعرية...» وقلنا في هذه الملاحظة «كان الكاتب مقتنع في سريره بان حياة امراء غير هذه الدولة ليس فيها ما يهدي الى اسرار هذه الشاعرية» فعقب على هذا بقوله انه مقتنع سرا وعلانية بانه غاب عنا قولهم (المثال لا يخصص).

ونحن نقول انه قد جهل جهلا مطبقا ما يعرفه صغار الولدان من معنى لعل وانها ليست للتمثيل وانما هي للترجي والتوقع وفي اصطلاح قوم للطمع والاشفاق فحضرته حين قال ولعل في حياة الامراء الموحدين ما يهدي الى مكان الشاعرية كان يرجو ويطمع انه اذا بحث تلك الآثار ودرسها دون غيرها ربما

يجد فيها ما يهديه الى اسرار شاعريته ولم يكن يمثل، وما اراد المثال، وهو لو اراده جهلا يكون قد استعمل حرفا (جا' لمعنى) فيما لم يجي' له فعلية ان يتعرف لدنيا النحاة ولا يعود لتمثيل هذه المهزلة «الجعسوسية»...

هاتان مسالتان تتعلقتان بصلب الموضوع. وبقي سباب ومهاترة سوف لا نقابلهما بمثلهما ولكن لابد من التعليق عليهما بما يستحقان:

فالناقد لغروره واعجابه بنفسه كان يظن ان لا غاية بعد ما كتبه وأنا سوف لا نرفع رأسا بالرد عليه وتصحيح اغلاطه، فلما خاب ظنه صار يرغي ويزبد ويجري على لسانه ما لا يقصد قائلا انه كان يكفي عن الرد عليه ان نقول ان ذلك سبق لسان وهما كلمتان خفيفتان! فيا للاكتشاف العظيم! ويا للنظرية العلمية الجديدة!

ايها الكتاب في جميع اقطار العالم! ايها النقاد في سائر اطراف الدنيا! لقد فاتكم من العلم بقدر ما ضاع من عمركم في تسويد القراطيس، انه لا يجب بعد اليوم اولا يجوز «لانا لا نعرف حكم ذلك عند حضرة الناقد» أن تراجعوا الناس في آرائهم او تردوا المخطئين الى صوابهم وانما يكفيكم ان تقولوا سبق لسان! وهما كلمتان خفيفتان! فاقبعوا في دوركم! وناموا ملّ جفونكم، وحطموا اقلامكم، وطلقوا حياة الكتابة طلاقا باثا،

وإذا عرض ما يقتضى منكم نظرا أو مراجعة فقولوا سبق لساننا
وهنا كلمتان خفيفتان

وعفوا ايها الناقد الكريم والمكتشف العظيم! فقد جاوزت
الحد واسأت الادب بالرد عليك ومراجعة ما كتبت فما كنت
احسب انك المعنى بقول حسان:

اذ قال لم يترك مقالا لقائل

بملقطات لا ترى بينها فصلا

كفى وشفى ما في النفوس فلم يدع

لذي ارب في القول جدا ولا هزلا

وان المتنبي قصدك بما قال:

من مبلغ الاغراب اني بعدهما

جالست رسطاليس والاسكندرا

وسمعت بظليموس دارس كتبه

متملكا متيديا محتضرا

ولقيت كل الفاضلين كأنما

رد الاله نفوسهم والاعصرا

وان العرب فيك وضعت المثال «كل الصيد في جوف الفراء»

وان الحسن بن هاني كان ينظر الى الغيب من ستر رقيق

حين وصفك بقوله:

ليس على الله بمستنكر ان يجمع العالم في واحد

ثم ما ذا؟ ثم (0)

وجعلوا صفرا علامة الخلا وهو مذور كحقيقة جلا
وتندر حضرة الناقد الفاضل بكتيب امرأنا الشعراء قائلا
اننا دعونا كتابا وربما ندعوه سفرا ولكن الامر بالعكس فاننا
لا ندعوه سفرا ولا كتابا بل ولا كتيبا ولنحسبه ورقة فقط
وانما حسبه انه اكل اكبادا واطار عن بعض الاجفان رقادا:
والنار تأكل بعضها ان لم تجد ما تأكله

وقد تعرضت في القسم الاول من الرد الى شرح طريقة
الكتاب الذين عثوا بدراسة آثار الادباء وكيف ان بعض المقلدة
الذين يعرفون بما لا يعرفون يأخذون تلك الاقوال ويحاولون
تطبيقها في غير موضوع وصرحت بانني قرأت شيئا من ذلك
لبعضهم وانهم يكثرون من الالفاظ الطنانة التي لا طائل تحتها
بينما هم يعرضون بيتا او بيتين لاديب او شاعر لا يعرف له
غير ذلك، فظن الناقد ان الكلام موجه له، وصار يتعجب نفسه
في استعراض كلامه ويتساءل ايث توجد تلك الالفاظ فيه،
وهذا دليل على العجلة وعدم التروي وسوء النية، فهل كان
لزما على ان استعمل الفاظه ولا اخرج عنها حتى في شرح
الطريقة التي اراد ان يلزميني بها وانما ارى لا محل لها، اما
كان يكفي اني اشرت الى ان بعضهم حاول تطبيق ذلك
بالفعل لا اقترحه، وانه خرج منه بغير نتيجة بل بنتيجة تبعث

على السخرية والاستهزاء وهكذا من الناقد يتدحرج مع هذا
الفهم المقلوب قلنا أقول ان شعر الامراء ولا سيما المغاربة قليل
ومن اكثر منهم فاكثاره نسبي ثم ان طبقته ونسبة بعضه
فيهما مقال فيقول هو اذا كان كذلك فلماذا قلت فيه انه خصب
ولماذا بينت ما هو منسوب لبعض الامراء ولم تبين البعض
الاخر، فليفرخ روعك يا استاذ! ان الكلام يفسر بعضه بعضا
والاشارة لا قرب مذكور كما تقرر في محله، وكان علينا ان
نبين هذا لغير من يدعي ما يدعي:

فشعر الامراء قليل لا تتوفر فيه شروط الدراسة التي تريد
والكثر منهم انما يعد مكثرا بالنسبة لغيره من الامراء لا
بالنسبة لغيره من الشعراء، وهذا كالامير سليمان الموحدي
وديوانه كراستات ثم ان طبقته ليست الطبقة التي لا يعلى
عليها ويكفيك قول ابن سعيد المغربي عنه في كتاب الزايات
«ديوان شعره مشهور، ولم اجد فيه ما يشفع له في هذا المجموع
غير قوله، الابيات التي قالها لما هجره المنصور، وقول ابن
سعيد هذا يفسر لنا ثقافت المؤرخين على نقل تلك الابيات
وانا انما اوردت كلامه ليلا ادلي برأيي الذي لا يقبله الناقد
ومع هذا وذاك فلا يخفك ايها الناقد ما في نسبة ذلك
الشعر الى الامير سليمان من مقال وكلام صاحب المعجب
في هذا الصدد، فأين ذهب بك عن هذا كله وجعلت تقول
لم بينت هذا ولم تبين ذاك؟ والخصب الذي لم تنسه كما لم

نفس نحن (الدراسة). راجع الى ادب الامراء في جملته لا في
تفصيله والى انتاجهم جميعا لا الى انتاج واحد بعينه!..

وبعد فاليك يساق الحديث. يا ناقدى العزيز فما رجوته
وطمعت فيه من امكان دراسة شعر الامراء الموحدين دراسة
فنية هو الذي يرد عليه هذا ونحن لم نجابهك به رعبا لادب
النقد وادارة الكلام على وجه ليس فيه مس بعواطف الشخص!
وقال الناقد اننا (تسامى) للملاحظة عليه وكرر ذلك
فشعرنا ان في العبارة تحريفا وان صوابها اننا ننزلنا للملاحظة
عليه وتواضعنا لله بتصحيح غلطه كما تواضع له رافع بن جبير
بالجلوس في حلقة الخرقى؟

ثم تعلق بقولنا اننا فلحقن الناس مواضع العبر والفخر
من تاريخهم فقال ان هذا موقف الواعظ المذكر لا الاديب
المؤرخ، ولا ادري اذا كان في الدنيا عقل (غير عقل الاستاذ
بالطبع) فاحرى قانون يمنع ان يكون المؤرخ الاديب واعظا او
مذكرا، وهل التاريخ كله الا وعظ وتذكير.

وهل قص القرآن العظيم اخبار الانبياء والامم الماضية الا
ليتعظ بها الناس ويتذكروا والذكرى تنفع المؤمنين.

الا ان الامر واضح فالاستاذ يريد منا ان نتحدث عن
حياة الغرام والمدام التي كان يحياها هؤلاء الامراء ونحن مع
ما اسلفنا من اعواز مادة ذلك الحديث، نعتزف له بكل صراحة
اننا لا نحسن ذلك، واذا احسنناه فنحن لا نجب ان نحدث

الناس به، ونفضل أن نعط ونذكر ونحلى هذا الجانب الحمي
من الادب للناقد فليجل في جولاته البهلوانية فما اولها به:
انا اقتسمنا خطيتنا بيننا...

واخيرا يغلى الدم في رأس الناقد ويغتاض، والغيط من
الشيطان فيبرق ويرعد ويهدد ويوعد ونحن لترويحہ وقسليته
نحكي له هذه الحكاية التي ضربت مثلا في شبه هذا الموقف:
زعموا ان فارة وقعت في دن خمر فشربت فسكرت
فقال: اين القطط...؟ فلاح لها هر فقالت لا تواخذ السكارى
بما يقولون!..



يظهر ان حضرة الناقد غضب علينا فسلب عنا وصف
 الصداقة الذي كان اول من خلعه علينا ورحبنا به لان صداقته
 مما يرغب فيه، فلا ندري ماذا جنينا عليه الان حتى يكتب
 (الى الاستاذ) ولم يكتب (الى صديقنا)؟ اهو جوابنا له وفيه
 من العنابة به والاكبار من شأنه وتعظيم قدره والتنبويه بعلمه
 ما فيه؟ ام هو وصفنا له بالناقد - وبينه وبين النقدبون - اجترأ
 عن كثرة وصفه بصاحب الذيل لان هذين المتضايفين يذكراننا
 بالحلقة المفقودة للربط بين الانسان والقرد في مذهب
 داروين؟ ام انه بعد ان فكر وقدر، وعبس وبسر، وادبر
 واستكبر لم يرنا أهلا لهذه الصداقة فعاد يستردها منا ظاناً ان
 الامر من السهولة بهذا المكان؟

كلا اثم كلا فنحن متمسكون بهذه الصداقة، واضعون اليد
 على قذالها، لا نتركها تلعب اذوارها البهلوانية دون ان نقول
 لها حين تتدحرج او تترجرج: هس! هس! عدس! عدس! وذلك
 من الغيرة عليها والضمانة بها فانها علق نفيس لا يتسامح فيه
 وماذا يقول (صديقنا بالرغم عنه) في هذه المرة؟

انه بعد ان استعرض كلامنا في المصادر وطرق ذكرها
 عند المؤلفين قديما وحديثا لم يجد ما يتعلق به الا ما ألمعنا

اليه من حماية المؤلفين لجهودهم من الادعاء والسطو، فيرجع
بعبثه في موضوع هو ابعد الناس عنه لانه يحسب كل صيحة
عليه ، ويشجع بمصادره التي نعرف انها كثيرة ولاكن في
خزانة (المكتبة المغربية العامة) !

والمعجب في هذا الحديث هو هذه الارابة من الاستاذ
فنحن اذا قلنا ان بعض الكاتيب حاول ان يطبق طريقة
الدراسة الادبية على بعض الشعراء الذين لم يرو لهم الا البيت
والبيتان ، ظن انه المعنى بذلك وجعل يتنصل ويتبرأ ويقول
انه لم يفعل ولم يحاول ! واذا قلنا ان بعض المؤلفين يفضلون
طريقة ذكر المصادر مجملة في أوائل او أواخر كتبهم حماية
لاتعابهم من الاستراق والاستلاب ثوهم اننا نعرض به فطار يخطط
خبط عشواء متلمسا لموقع الحجة بالدعوي او السفسطة على انه
لا يستلج ولا يسترق ... وكاد المريب ان يقول خذوني ...
ثم يرجع الينا فيصح كلامه في الدليل والتعليق الذي كان
يقول فيه اننا لا نذكر المصادر وان كتابنا خال منها ؛ وذلك
بحصر الدعوي في عدم ذكرنا للمقري وابن القاضي فقط ، ا
فما عدا ما بدا ؟ ...

لقد صار الناقد يتراجع عن غلوائه ويرى اننا لم نذكر
المقري وابن القاضي فقط ولربما بعد حين يرى انه لا موجب
لذكر هذين ايضا ؛ لان اثاره مسألة المصادر من اول يوم انما
كانت كالنسي زيادة في الكفر !

ولكن بربك ايها القاري اي مناسبة بين اهتضام آثار المؤلفين وأرائهم وعدم نسبتها إليهم، وهو موضوع الحديث كان - وبين ذكر قول مشهور أو خبر ماثور مع نسبتها لصاحبها وهما التاج ابن حمية وابن سعيد المغربي وإن لم تذكر وساطة المقرئ في ذلك؟... اهذا من باب ما كنا فيه؟ ليس قد نسب الخبر لصاحبه والقول لقائله ولا علينا فيمن ذكره لأن المطلوب هو امانة النقل وعدم تحريف النص؟ إلا يستعمل المقرئ نفسه ذلك مع ابن الخطيب وغير ابن الخطيب حتى لينقل مسودة كاملة ولا ينص على موضعها من كتبه وابن القاضي؟ ألم يكذ يكون نقلاً مجرداً عن كتب الآخرين بدون تسمية ولا نسبة فاجرى النص ينقله بواسطة غيره؟. هذه هي طريقتهم بإصديقي عبد الرحمن في الكتب الأصول والموسوعات الكبرى فما بالك بكتاب استغفر الله، بل بورقة امرأنا الشعراء؟

« والنبوغ » من الذي زج به في هذا المبحث غير حضرتك؟ ألم تقل أنه كذلك خال من ذكر المصادر - كما تريد - وإن هذه شنشنة أخزم؟ فاضطررنا لأن نقول لك أن النبوغ مصادره فيه، ذكر بعضها عند الاقتضاء استطراداً على طريقة القوم ثم ذكرت جميعها باخراً وإن ملزته به من النقل مباشرة عن كتب غير موجودة هو من عدم التحرير وقلة الانصاف والأمن المعلوم أن الحاكم على ما في الكتاب

هي المصادر المذكورة باخره على انها مراجعه ومواده فحيث
لم يذكر الكتاب المفقود مع تلك المصادر عُرِف ان النقل عنه
بواسطة لامباشرة، والمهم كما قلنا انفا هو التثبت والتحري وليس
على المؤلف حتما ان يذكر من اين استمد معلوماته ولكن الذي
عليه ان يحقق هذه المعلومات فاذا زاد وذكر استمداده كما
فعلنا فذلكم الكمال!

هذا وجه القضية وعرض حال المسألة لا اننا ذكرنا التبوغ
لتحليل عليه في مصادر (امراؤنا الشعراء) كما لم يتورع ان
يدعى ذلك حضرة الناقد...

وتأتى شهادة المستشرق بروكلمان في هذا السياق حيث
انه اعرف الناس بمسألة ذكر المصادر وترتيبها وتفصيلها
وتبيينها، وان شاء الناقد فليقل لا، وهى شهادة لها من القيمة
بقدر ما حظ حضرة منها على حد ذم الثعلب للعنب في قول
الشاعر:

ايها العائب سلمى انت عندي كثعاله
رام عنقودا فلما ابصر العنقود طاله
قال هذا حامض لما رأى ان لايناله

وعندك ما يقوم مقام شهادة من ذكرت من الاعلام فاقرأ الفصول
العامرة التي كتبها امير البيان المرحوم مقدمة للطبعة الثانية من هذا
الكتاب حين تصدر بحول الله او ابعث لي اولئك الاعلام من

مرقدتهم * أنك بشهادتهم قانهم رحمهم الله كانوا مثال التواضع
والإنصاف في غزارة علمهم وسعة نظرهم؛

واما الاعتداد بشهادة هذا الاجنبي وانه ليس من هدى
الاسلاف، فمن قال ان الاسلاف لا يعتدون بشهادة الاجانب؟
هل كان الاسلاف من التعصب وقلة النظر بالمكانة التي
يجعلهم فيها حضرة الناقد فلا يقبلوا كلام الاجانب وهم المتواصون
بطلب العلم ولو بالصين واخذ الحكمة التي هي ضالة المومن
من اي وعاء خرجت .

وهل الذين اطلعوا الاسلاف على دنيا العلوم وفتحوا لهم
ابواب المعارف الا اجانب كانوا يلقون من اولئك الاسلاف
كل عناية وتقدير؟
هذه مناورة مقصودة !..

ولكن كل هذا لا يهم، وانما المهم ان الاستاذ ضحك في
هذا المقال، بعد طول العيوس واستصحاب الجهامة منذ ابتداء
هذه المناقشة، وما كان الامر ليقترضه كل هذا الجد بل الغيظ،
فما زال الناس يؤلفون، والنقاد (حقيقة) ينتقدون، والمنتقدون
يردون على النقاد (فاما الزيد فيذهب جفاء؛ واما ما ينفع الناس
فيمكث في الارض).

ضحك الاستاذ فيما بشري !

اضحك الله سن من اضحكه ! وان قال انه ضحك مقرون
بالبكاء؛ فلا ياس. انه كقول العامة «ضحك مارس وتسلّى ابريل»!
بلى ! انه ضحك الجوزة تحت الحجر. فياما اغربه من ضحك؟!.

كان بآخر المقال السابق (تقرير) على (حاشية) الناقد واهمل
- ربما لضيق نطاق الجريدة - وحيث ان الحاشية اشتملت على
ثلاث نقط مهمة لا يمكن السكوت عليها فانا نعيده هنا اكتفاً
به ولو توفرنا للرد عليها لطال الكلام وخرجنا عن الموضوع.
وهذا نص التقرير:

رجع الاستاذ الى القول بان لعل للترجي لا للتمثيل
والرجوع الى الحق فضيلة! واعترف بان الذي يمكن ان يدرس
هو اخبار حياة هؤلاء الامراء - ان وجدت - لا اشعارهم وهذا
انصاف كبير! .. وقال اننا أغرنا على رسالة التبريع والتكوير،
وغلط في الاسم فانا اغرنا على رسالة «التقصير والتكوير»
والغلط يرجع من التليس!

اما مسألة الكلام المشوش فانتا فكرنا فيها وهمنا بان
نرجو من حضرته ان ينوب عنا في تصحيح تجارب الطبع
لوجوده هناك بقرب المطبعة لا كنا رأينا كلامه اكثر تشويشا
فيئسنا ...

ونرجع الى ما نحن في صده وهو مقال حضرة الناقد
في مسألة العزفيين الذي نحت فيه اثلته ونفض كنانته وابرز
مكنون علمه - كما كان وعد - فاذا به يرجع الى القول
القديم وهو ان العزفيين كان يجب ان يذكروا ضمن
امراء المغرب الشعراء «ولا شأن لما يكون هنالك من اعتبارات»

هكذا بهذه العبارة التي لا تصدر ولو من فقيه مهوس امام
تلامذة مغفلين!

وزعم ان المؤرخين وكتاب التراجم وصفوهم بالامراء
والسلاطين فطالبناه بالدليل ومن هو هذا المؤرخ او المترجم
الذي وصفهم بذلك فبلغها وصار يغالط باننا اثبتنا لهم ذلك في
الكلمة التي نقلها عنا.

الله أكبر! بعد ان كنا لا نذكر المصادر في كتبنا
- كما زعم الاستاذ - صرنا الان مصادر يعتمد عليها ويكتفى
بها في الاستشهاد ..!

بعض هذه المراوغة يا استاذ! ان ما اثبتناه نحن هو وصف
المؤرخين وكتاب التراجم لهم بالرياسة وبعضهم وصف واحدا
منهم فقط عرضا بالامير والباقون وان ذكروهم في عداد
الامراء تارة وفي عداد الفقهاء تارة اخرى لا يصفونهم الا بالروساء
ويتجنبون وصفهم بالامراء والسلطين وهم ان ذكروا حسن
امرتهم وعدل سلطانهم فانما ذلك على سبيل التعظيم لرياستهم
والثنويه بشأنهم فأين قولك انهم وصفوهم بالامراء والسلطين؟..
يقولون اقوالا ولا يعلمونها فان قيل هاتوا حقا لم يحققوا

وقلنا ان القوم كانوا ولاية مدينة وهي سبتة ولا يصح
بحال ان يعدوا في امراء المغرب لذلك فصار يغالط ويقول ان
الفقيه ابا القاسم العزفي استولى على طنجة واصيلا ردحا من
الزمن والمقاري الذي لا يكون على خبرة من الامر نقول ان

هذا الرئيس تولى طنجة فعلا ولكن عاما واحدا فقط، وفي أيام الفتنة ومعنى توليته لها ان رئيسها او اميرها على اصطلاحنا قدنا دخل في طاعته ثم بدا له فاستقل بنفسه.

واما اصيلا فانما ارسل اليها في ايام الفتنة فهدم اسوارها خوفا من نزول النصارى فيها فهذه هي توليته لها.

وفائدة الخبر في هذا الامر ان الرجل حاول ان يخرج من حلقة الولاية او الرئاسة الضيقة الى دائرة الامارة والسلطان الواسعة فلم يقدر له، ولو جئنا نعد كل ثائر وكل محاول لتأسيس دولة اميراً وسلطانا لكان عدد هؤلاء اكثر من عدد الامراء والملوك الشرعيين.

وقلنا ان هذا الرئيس ابا القاسم لم يلبث ان ساقه المرينيون بعصاهم ودخل في طاعتهم هو واولاده فكيف يعد اميرا الى جنبهم او الى جنب غيرهم من امراء المغرب فقال ان ابا زكريا منهم قد استقل كسلفه بسبته فياعجبا كم يتعلق حضرته بالخيوط العنكبوتية ليصح نظرا خاطئا ويبطل حقا واضحا؟..

والواقع ان ابا زكريا، هذا حاول الاستقلال فقاده ذلك الى العزل والوقوع في الاغلال وذهبت بذلك ريح قومه واحت رياستهم وما عهدنا الامارة المستقلة تكون هكذا...

والغريب من امر الاستاذ الذي كان حريصا على الاحاطة والشمول واخذنا بها وبنى كل نقده تقريبا على اساسها اننا

لما تبرأنا منها وقلنا معاذ الله ان ندعي شيئاً من ذلك، صار
يتبرأ هو منها ايضاً ويقول ان الاحاطة الشاملة لا تكون الا لله
عز وجل وان علمه تعالى هو الذي لا يغيب عنه شيء فيا سبحان
الله! كيف يسرق احدكم دجاج خيرانه ويأتي بالريش على
رأسه وهو ينكر ذلك؟..

لم تقع كلمة الاحاطة والشمول في كتاب امراؤنا الشعراء
اصلاً ولا ما يرادفها في معناها والناقد نفسه لما اراد ان يلصق
هذه التهمة بالكتاب صار يقلب كل حجرة ويفتح كل باب فلم
يجد ما يتمسك به الا وهما وتمحلا. ومع ذلك فان هذه المجموعة
قد احاطت بكل ما هو معروف لحد الان من شعر الامراء
المغاربة الذي يمكن ان يقال عليه انه شعر وما تركت الا
النفائات والانظام الركيكة التي لا نسبة بينها وبين الشعر مطلقاً
كما رأى القاري ذلك في سلسلة الرد الاولى .

وفي نقد الاستاذ الفاسي كاد الكلام كله ان يكون مبتني
على هذه الفكرة وهو الذي اتى بكلمة الاحاطة والشمول وما
سمى نقده ذيلاً وتعليقاً الا لايهامه انه سيحيط بالموضوع من
جميع جهاته ويشمل كل متعلقاته فلما اظهرنا له انه لم يحط
ولم يشمل شيئاً وانه اول من يتوجه عليه هذا المأخذ جعل يتنصل
ويسند العلم الى الله ويقول ان الاحاطة بمعناها الحقيقي لا
تكون الا لله. وهذا من باب السما فوقنا فنحن لم نطالبك بما
فوق طاقة البشر وانما طالبناك بان تسير على نهجك الذي

رسمته بنفسك وتذكر كل من كان كالعزفيين تولى شيئاً من الامر وقال الشعرونستدرکه عليناوذلك كالدلائيين ولوقاش. لان هؤلاء بحسب شرطك ياتون اولا وقبل العزفيين لانهم ملكوا اقليما لم يملكه العزفيون. واما لوقاش فقد ملك مدينة مثل سبته وهي تطوان وقال الشعر وادعى الخلافة بل ما هو اعظم منها فكيف غفلت عنه وعنهم ولم تثب اليهم بذيلك او يثبوا اليك... والفضيحة كل الفضيحة؛ يقول الصوفية؛ هي التسبيح والتنفيحة ونقول نحن هي ما وقع للاستاذ من المكابرة في هذا المقام فانه لما توجه عليه هذا المأخذ ولزمه الحق في عدم ذكره للدلائيين ومن تبعهم انبرى يقول انه لم يذكرهم لانه لم يتكلم على دولة الاشراف العلويين يعني وهؤلاء معاصرون لهم كانه تكلم على العزفيين في اثناء الكلام على دولة بني مرين المعاصرة لهم ..

فعلى من يدلس الاستاذ؟ علينا أم على القراء؟ .. أما علم اننا ان نسينا ذكره للعزفيين في اول مقال واستدراكه لهم علينا في طالع الذيل والتعليق قبل ان يتناول الكلام على اية دولة، فان من بين القراء من لا ينسى قطعاً؟ .. اما علم ان الجريدة بيد كل احد وان الناس ان لم يحتفظوا بها لمقالاته النفيسة فعلى الاقل يحتفظون بها لانها سجل تاريخي للحركة الوطنية في فترة من الزمن؟ ..

الواقع ان الناقد اثار مسألة الاحاطة والشمول واستدرك

الرؤساء العزفيين في الكلمة الاولى من ذيله وتعليقه قبل ان
يتعرض لفصول الكتاب ويتتبع شعر الامراء من كل دولة فلو
كان خطر الدلائب له ببال لذكرهم اولاً مع العزفيين
ولطال وجال في كل مجال من شنيع المقال، لكنه لما
فاته تحقيق هذا المقام صار يتعلل بالاهام ويمخرق بكلام النيام.
وقد كانت الكلمتان الخفيفتان على اللسان الثقيلتان في
الميزان الحبيبتان الي « عبد الرحمن » اولى به هنا، فان
لم تطاوعه نفسه عليهما وهما لا يزيدان فينا ولا ينقصان منه،
فليضرب عن المسالة صفحا وليعترف اعترافاً سكوتياً بما لزمه
فيها من الخطأ ولان يكون ذنباً في الحق خير من ان يكون
راساً في الباطل.



أصبح من خواص الأستاذ عبد الرحمن الفاسي الخيرة والاضطراب فهو يخطب خطب عشواً في ليلة ظلماء، لا يعرف ما يكتب ولا أى طريق ينهج، فقد سجلنا أنه دعانا بصديقه ثم نزع منا هذا الوصف، وقد كان يحلينا بالأستاذ فصار يدعونا بالاسم المجرد ظناً منه أن ذلك ينقص من قدرنا شيئاً، وقد كان يعنون مقالاته (بليبك لبك) فكأنه شعر بما فى ذلك العنوان من برودة وضعف فغيره ولما ينته من رده بعد.

وأصبح من خواص الأستاذ أيضاً الخروج عن الموضوع فقد كان من حقه إذا أراد الرد علينا حقيقة أن يقول إن هذه المقطوعات التي استدركها علينا بزعمه صالحة أو غير صالحة وانها مما يفتخر به الأدب المغربي أولاً وخصوصاً بعد أن زيفناها تزيفاً ولا يغض الطرف ويمرر الكرام فيخوض في شؤون أخرى ويستطرد ذكر النبوغ من جديد ويقول متى عهدنا نختار ونفرق بين الشعر والنظم إلى غير ذلك.

وأذن فانت يا أستاذ تقر بأن تلك القطع ليست من الاختار ولا من الشعر في شيء وإنما هي نظم ونظم مختل ركك لا قيمة له من الناحية الأدبية مطلقاً فاحري أن يكون مما يفتخر به المفتخرون... ولذلك تركه صديقك القديم ولم يشوه به مجموعة أمراؤنا الشعراء.

وأصبح من خواص الأستاذ كذلك - وبالأسف - إذا اعوزته

الحجة والدليل والبرهان - وهي دائماً تعوزنا - ان يستعاض بالسبب والشتم والقذع مما يدل على خلق نبيل وتربية عالية ونشأة صالحة وسيرة حميدة. ونحن اذا فكرنا في هدايته من حيرته ورده الى صوابه والجواب عما يقع له من خلط وخبط فاننا لا نفكر ابدا في رد هذه الشتائم عليه ما دام عندنا ما نقول وما دامت الحجة لا تعوزنا في شيء (وانما السبب سلاح العاجز): قال يوم قد بت تهجونا وتشتمنا فاذهب فما بك والايام من عجب ونورد اولا حكاية لطيفة، تناسب العنوان الجديد (ما احق الشوها ان تتقنع) الذي عوض به العنوان السابق:

ذكروا ان البومة قالت لاولادها ان لنا وجوها صباحا تعشي اعين الناظرين فلذلك لا نظهر بالنهار. فلما جاء الليل وكان القمر باسطا رداؤه الفضي على الارض نظر الاولاد وجوههم في بركة ماء فرعبوا فقالوا لامهم اين الوجوه الصباح التي ذكرت فقالت لهم وهي اسفة ان حسنا عربي!...

فليت شعري ماذا يجدى بومة حسان المجذومة اذا نظرت وجهها في ابي رقراق ان تتقنع وحقها ان (تتخضع) كأخواتها منسدة مع الحطيثة قوله الصائب:

ارى لي وجهها قبج الله خلقه فقبح من وجه وقبح حامله!
ونورد ثانيا ان صديقنا الناقد لما رأى نفسه تورط في حباله هذه المناقشة وكان وعد القراء بأنه سيصطاد وانه يعرف

كيف يصطاد، لم يسمعه إلا أن يحكي مقالاتنا من الجريدة وهذا
لذلك أولا بحذف التقرير الذي كتبناه على حاشيته وهو الذي
ضمنه صدر المقال الثالث وثانيا بحذف كلمة (كل مقال
جواب) من آخر مقالنا الثاني لأجل إيهام القراء أننا عينا
بجوابه، وثالثا بعدم نشر مقالنا السابق كله ورابعا باقتال باب
هذه المناقشة بعد استكمال رده على مقالاتنا الأولى. وكان من
الحق والطبعي أن يدع لنا مجالا للجواب عن مقالاته كلها
فانه كان أول متكلم فيجب أن تكون الكلمة الأخيرة لنا.
.. ولكنه كان قد وعد القراء أنه سيصطاد وأنه يعرف

كيف يصطاد فها هو قد اصطادنا ببراعة تقصر عنها براعة (طرطران)
الذي كان يوثق له الصيد ويرميه فلا يصيبه ...

ثم نورد ثالثا أن حضرة الناقد - مع التصفيق له والاعجاب -
ما زال يستدرك علينا شعرا لم نذكرهم. ولقد فاته - كما قال -
أن يستدرك شاعرا آخر اصطدم به أخيرا، ونحن بدل مناقشته
في هذا الشاعر نذكره بأعظم أمير شاعر كان يجب أن
يستدركه علينا من أول وهلة، وهو مع هذا التبع والاستيعاب
وهذه الاحاطة والشمول لم «يشب» إلى ذهنه ولا وثب هو إليه
وان كان أصحاب الذبول وثابين، ولهذا الأمير بيت مشهور
من أبرع الشعر لا يقصر عما ذكره الناقد في ذيوله، لانه
كان في الذروة من فصاحة اللسان ونصاعة البيان على
العكس من وزيره الذي كان بليد الذهن عقيم الفكر فلذلك

لم يدرك ما في بيت الأمير من بلاغة نادرة وشاعرية عجيبة.
وهذا هو بيت الأمير (دحو) :

أيها الفقيه المزدغي عن الصلاة لا تغفل

وكان الفقيه المزدغي هو وزير الأمير وقد زعم أن
البيت غير متزن فاعتاظ الأمير وأمر به إلى السجن ثم فكر
بعد ذلك في بيته البديع وقال حقيقة أن البيت غير متزن
فجعله هكذا:

أيها الفقيه المزدغي عن الصلاة لا تغفل غ

واستدعى وزيره من السجن وعرضه عليه قائلاً ها هو ذا
البيت قد صار متزناً مقفياً فما ذا ترى؟ فما كان من الوزير
البليد إلا أن أجاب بقوله: ردني إلى حبسي! ...

فليسجل الأخ عيد الرحمن هذا الأمير الشاعر في طاعة
أمرائه الشعراء فما أحدهم بأولى منه ولا أحق بالذكر والتنويه.
وبعد هذه المقدمة نقول لأديب بوقرون: أحمد الله يا هذا

على أن ليس للأدب محتسب، لا فقيه ولا منتسب، ولا لكاتب
صرفك إلى الكتاب، من بين كرام الكتاب، أمث يقيم نفسه
مقام الأديب الناقد يجهل عدم الانسجام بين القطعة الخالدة
(لو مد صبري) وما زيد عليها من بيتي (وكيف يصبر) ولا
يقف عند هذا الحد حتى يتصرف فيها بالتقديم والتأخير وفي
تصرفه هذا إقرار بعدم الانسجام فيجعل بيت وكيف يصبر ثانياً

لميت لو مد صبري ذلك الميت الذي يعرق في حصه العظيم
الف بيت من باب وكيف يصبر...؟

امن يتصف بالادب والنقد يروي الايات مشتملة على
عيب الايضا ولا يظن له حتى ينبه اليه فلا يجد سبيلا الى
التخلص الا المزاوغة ونكران ان تكون تلك هي الرواية وقد
نقلها هو بنفسه كذلك، فما ذا تهمن الرواية بعد ان اثبتنا
انت نفسك معيبة، وهل اذا وجدت سليمة عند المرزباني
يكون ذلك شفيعا لك ومبرئا من عدم مؤاخذتك بعيب الايضا
الذي رويتها به ..؟ ..

امن يتحكك بالادب والنقاد لا يجهل من هم القدماء من
الشعراء ويجعل ابراهيم المؤبل منهم؟ وهل في المغرب من
يعد في طبقة الشعراء القدماء؟ فيا ضيعة الادب وتاريخه عند
استاذ آخر الزمان!

امن يتكلم في الادب وتاريخه ويحاول ان يكون له
رأي في الادب المغربي يجعل اعلام ادب المغرب ويختلط
عليه الامر بين من تأصل في الاندلس ومن اقام فيها مدة من
الزمن فهو يستنكر ان يكون الاستاذ ابو بكر بن شبريت
مغربيا - كما عددناه في النبوغ - لكونه اقام في الاندلس
زمننا ما ويتكفي عليه ليعد الاديب ابراهيم المؤبل اندلسيا كما
ادعى في تعليقه، واذن فهل يكون ابن رشد وابن طفيل وابن
زهر واضرابهم مغاربة..؟

امن يوسف الى ان يعتقد ان ذوي النسب الواحد يجب
ان يكونوا من بلد واحد فكل ادريسي مغربي ولو ولد وعاش
ومات في الاندلس - يصح ان ينتمي الى اسرة المؤرخين والنقاد ؟
اذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه الى ما تستطيع
كيف عميت يا اديب بوقرون عن جمال الدعوة الناصرية ولم
تدرك ما فيها من بلاغة وسحر بيان وقوة اسلوب وجو شعري
مؤثر يستولي على المشاعر والقلوب ؟ ..

كيف عميت يا صاح عن جمال البيتين (الله يلفظ بالعباد)
وحسن موقعهما فيما قيلاً فيه واحكام نظمهما ولطف مسلكهما
لتضمين الآية الكريمة التي زادتهما جلالة وروعة ؟ ..

كيف عميت عن جمال البيتين (الاهي سألتك بالمصطفى)
وما فيها من حسن التوسل وادب الدعاء وإشفاق هذا العبد
المنيب الى الله من الحزى والعذاب يوم القيامة وكل ذلك في
رقة وطبع واقتنان اخاذ ؟ ..

فان كنت لا تدري فتلك مصيبة وان كنت تدري فالمصيبة أعظم
لقد ظن اديب بوقرون (وبعض الظن اثم) اننا ما عينا
بعض الابيات التي استدركها علينا وقلنا اننا تركنا قصداً
لتفاهتها وردائها الا من اجل كون موضوعها هو الدعاء
والالتهال والتضرع . ولا، وسمعتة الادبية التي بقيت بمنجاة من
الدوس، فان الدعاء موضوع شريف حسبه انه ورد فيه الحديث
الصحيح (الدعاء مخ العبادة) وقول الله تعالى (قل ما يعبا بكم

ربي لولا دعاؤكم) وضمته البغدادي في الوتريات فقال:
... فلولاً الدعا ما كان بالخلق دعاءً ... فلو كان الدعاء بمجرده
مما يعاب به الكلام لكانت هذه النصوص نفسها خارجة عن
نطاق الادب ومعدودة في غير باب من الكلام البليغ.

لكن الحقيقة هي ان الدعاء من موضوعات الكلام
الجميلة وانما يلزم ان يتناوله اديب مبدع فيبعث الوجدان
والخشوع من مكانهما في القلوب، ويهز المشاعر والنفوس
هزا عنيفاً فمن باك على ما فرط في جنب الله، ومن تائب
نازع عما اوبقته فيه نفسه الامارة بالسوء الى غير ذلك من انواع
التاثرات بحسب اختلاف الحالات واي اثر محمود يراد من
ارفع انواع الادب ابلغ من هذا الاثر؟..

هل قرأ الاديب الكبير الذي يحسب ان الادب انما هو
حياة الحب والمدام الدعوة الناصرية مرة واحدة بهذه الروح
وهذا الاعتبار ليرى ما فيها من آيات البلاغة وسور الابداع!..
هل في الوجود من له مسكة من الطلب فقط (لا الادب)
من يقرن هذه الدعوة الفذة او الابيات الاربعة السابقة الذكر
بالذيل الذي يتمسك به صاحب الذيل وهو (وارغب خالقي في
العفو عني) ويرى ان بينهما مناسبة ما حتى يسوغ ذكره معها؟
نعم كان يجب ذكره معها لاطهار ما في تلك من الروعة
والجمال وما فيه من الضعف والاختلال. ويكفي اللحن
الواقع في اول كلمة من هذا الذيل وهو قوله (وارغب خالقي)

لنبذهم وعدم الالتفات اليه فما بالك بما يعده من التفكك والانحلال:

ينادي ربه باللحن ليث لذاك دعاؤه لا يستجاب

وكما قلنا ان الناقد اصبح من خواصه الخروج عن الموضوع فهو قد ترك الجواب عما توجه عليه من هذه المسائل وجعل يتعلق بكتاب النبوغ ويقول لما ذا ذكرنا فيه الدعوة الناصرية وأمثالها مما سبق بيانه توهمنا منه ان الدعاء ليس من موضوعات الادب ثم تعلق بأبيات القصار المذكورة في النبوغ وهي:

تسع أبي منها اولوا الاحلام والهمم السنية

الى آخرها جاعلا منها مبررا لذكر ذيله (وارغب خالقي) ومن يستطيع ان يفهم الحكيم توما انه يجهل ويجهل انه يجهل؟.. فليت شعري ما ذا يعيب اديب بوقرون من هذه الابيات الحكيمة النادرة؟.. هل اختل فيها شيء من فاحية الصنعة كما اختلت ذيوله المنبوذة؟ هل رايه منها هذا العدد المضبوط وتوهم لقصوره ان ذلك ليس من اساليب الشعراء والادباء فما قوله اذن في ابيات طرفه: ولولا ثلاث... وقول الشافعي:

ان المكارم اخلاق مطهرة فالعلم اولها والدين ثانيها

الى آخر العشرة..؟

هل الذي انكره منها هو ذكر الامة وما اليها وقوا مع المساطير ولكون ادب الدين والفضيلة والخلق لا يروقه؟ فيا ما اعظم فجيئته في العقل المستنير الحاكم على الاشياء باستقلال القادر قدر البيّنات واختلافها وما ينتج عن ذلك الاختلاف من

تميز في التطور والتعبير ومنها يكن الامر فما قال طويل
الذيل يستشهد بآخر بيت منها ويغزوه سداد حكمه وسلامة
مأخذه حتى ينسى السياق الذي اورد فيه من الزرابة عليه الى
الازراء به على الغير:

فسد الزمان واهله الا القليل من البرية
هذا قول القصار وقال شاعر آخر:

فسد الزمان كما تربي من حاله وكذا عوائد آخر الزمان
وقال ثالث:

يقولون الزمان به فساد وهم فسدوا وما فسد الزمان
فاين يرى القاري موقع البيتين من بيت القصار وقد ذهب
كل واحد منهما في طرف واخذ القصار بالفكرة الصواب؛ فليس
الزمان هو الذي فسد وحده ولا الناس جميعهم فسدوا ولكن
الانحراف وقع منهما معا وبقي بعد ذلك خير وان كان فيه
دخيل...

فسد الزمان واهله الا القليل من البرية
حكمة خالدة رتبت على وصية عملية عظيمة وذلك هو
سر ايداعها في النبوغ في باب الوصايا والحكم افيا لضيعة الاداب
المغربية بين الاهمال وسوء الفهم...

وبعد فما نرى الاخ عبد الرحمن الفاسي من خلال هذه
المناقشة الطويلة الا مثل جراب الكردي فيه كل شيء بزعمه
قلما فتش لم يوجد فيه الا كسرة خبز يابسة وقطعة جبن
وحبات زيتون.

كتاب الذخيرة لابن بسام

كان يوما سعيدا حقا، بالنسبة لي على الأقل ومن الوجهة الادبية بالخصوص فقد حمل الي صديق عزيز كتابين جديدين مما جاء به احد افراد البعثة العلمية الواردة من مصر احدهما مجموعة دواوين عربية. والاخر كتاب الاندلس المسماة لعبد الله عنان ثم بعد فترة وجيزة حظيت من طريق آخر بكتاب الذخيرة لابن بسام ذاك الكتاب الذي يهمننا معشر الباحثين في الادب والتاريخ المغربيين كثيرا والذي طبع منذ أوائل هذه الحرب ولم يصلنا. وكنت انا قد طلبته بالفعل وقدمت ثمنه ولكن بغير جدوى ثم ما انتصف ذلك اليوم حتى بلغتني هدية من أخ حميم هي كتاب مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين لابي الحسن الاشعري في جزأين وثالث للفهارس طبع في اسلامبول بعناية المستشرق الالماني ه. ريتير - فكان يوما سعيدا حقا بالحصول على هذه الكتب النفيسة من غير توقع لذلك في أيام الحرب هذه وانقطاع المواصلات.

وقد بدأت بقراءة كتاب الذخيرة وكنت كلما تقدمت في قراءته تذكرت ظرف ذلك الاخ الاديب الذي حال المنفى بيننا وبينه فانه كان يأتيني ويجد عندي بعض الجرائد والمجلات المصرية فيقول لي ان من يحمل لك هذه الصحف يريد ان يستميلك بها

لو حمل اليك كتابا من المطبوعات الجديدة لاستمالتنا جميعا
 فأقول له حسنا. وما ذا تريد من الكتب فيقول كتاب الذخيرة
 من أهمها. كان الله لك يا أحمد ورد غربتك! فها هي الذخيرة قد
 بلغتنا وها انا قد طالعتها ووددت لو امكنتني ان ابلغك انها
 ليست من الاهمية بالمكان الذي كنا نظنه ولا سيما بالنسبة
 الى الادبيات المغربية فان حظها منها ضئيل جدا ولم يات بعد
 الجزء الذي تعرض لها فنحكم له او عليه اذ ما بلغنا منها لحد
 الآن الا الجزء الاول وقد استغرقه كله على ضخامته تراجم
 اربعة من ادباء الاندلس ابن دراج القسطلي وعبد الوهاب ابن
 حزم وابن شهيد وابن زيدون في بعض ادباء صغار وامراء من
 عهد الفتنه.

ولزيادة التعريف بالكتاب نقول ان كتاب «الذخيرة في
 مجاسين اهل الجزيرة، لابي الحسن علي بن بسام الشنتريني
 المتوفي سنة 542 قد الفه صاحبه على نسق كتاب اليتيمة لابي
 منصور الثعالبي وقسمه اربعة اقسام: فقسم لولاية قرطبة وقسم
 لولاية اشبيلية وقسم لولاية بلنسية وقسم للطائفتين على الاندلس
 من مشارقة ومغاربة واخرجت المطبعة القسم الاول في مجلدين
 ليس بيدنا الان منهما الا المجلد الاول.

وقد كانت المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال يريد
 طبعه استقلالا ثم تنزل عنه للجنة مؤلفة من كبار اساتذة الادب
 في مصر وحسنا فعل فانه ما كان ينهض ينشره نشر علميا

وحيد اللهم الا ان يكون نشرا تجاريا رخيصا وان سمي - لكونه عملا اجنبيا - نشرا علميا . وسيرى القاري انه على قيام هذه اللجنة بنشر الكتاب لم يخرج كما يجب ان يكون فاحرى لو انفرد به مسيوليفي .

وقد الفت هذه اللجنة من بعض طلبة كلية الادب في الجامعة المصرية مع المسيو ليفي وهؤلاء كلفوا بمعارضة نسخ الكتاب وتهمئة النص الذي يجري عليه الطبع وتصحيحه ، ومن اساتذة الكلية احمد امين ومصطفى عبد الرزاق وعبد الحميد العبادي وعبد الوهاب عزام وطه حسين مع ليفي بروفنسال ايضا وهؤلاء كانت عملهم مراجعة النص الذي هيأته الجماعة الاولى وعرض ملاحظاتهم عليه وكان الدكتور طه حسين هو الذي كتب مقدمة الكتاب من بين هؤلاء وعلى كل حال فان اخراج الكتاب من الناحية الفنية كان بديعا للغاية وهو مضبوط بالشكل الكامل .

ومقابلة النسخ بعضها مع بعض فيه ذققة جدا بحيث كادت تكون في بعض الاحيان عديمة الفائدة لولا ما يحمل على اثباتها من الحرص على الامانة العلمية .

وانما نلاحظ ان التصحيح لم يكن كاملا بحيث وقعت في الكتاب اخطاء لغوية وأدبية كان بؤدنا ان يكون سلبيا منها . ولولا أهمية القائمين على نشره لما اعرفناها انتباهها ولكن الخطأ الصغير يستعظم من الكبير .

ونشير الى بعضها ليلا يتوهم اننا نلقي الكلام على عواهنه
من ذلك كلمة (المفاتشة) ص 4 الظاهر ان ضواياها
المنافثة لا سيما وقد عطفت على كلمة المباحثة فتناسبها من
حيث المعنى واللفظ. واما المفاتشة فهي كلمة لم ترد في اللغة
والغالب انها تصفحت على المصححين من كلمة المنافثة التي
استظهرناها.

ومن ذلك في ص 9 قول المؤلف «جعل الله الدهر أقصر
ايامه والنجوم مراكز اعلامه» جعله المصححون اقصى ولا يناسب
مقام الدعاء الذي يريد منه الكاتب ان يكون هذا المدعو له
طويل العمر حتى ان الدهر كله يكون يوما من ايام عمره
ومن الايام القصيرة مع ذلك.

وفي ص 51 ضبط المصححون لفظة زفاته بفتح الزاي
وكذا في سائر الكتاب وهي بالكسر على المعروف وعليه
اقتصر في القاموس.

وفي ص 62 جاء هذا البيت اثنا قصيدة هكذا:

واملا سمع الدهر من سحر ما أُملي

وقد وقع فيه العروض سالما وذلك قبيح ولم يقع في الشعر
الا شاذا قليلا ولم ينبه المصححون على ذلك ولا على انه كذلك
في جميع النسخ الاصلية كما يفعلون في اقل من هذا.

وفي صفحة 71 وقع شكل مرضعة بفتح الميم وهي بالضم
ولعله غلط مطبعي فقط.

ومن ذلك كلمة عرس في هذه العبارة ص 128 «وطلق
عرس الشعر ثلاثاً، ضبطت بضم العين وهو خطأ والصواب
الكسر وهي العروس. ومن ذلك هذه الفقرة في ص 135 :
«قبح الله زماناً يقرب الى اللئيم حساناً والى الكريم ائاناً» ضبط
المصححون حساناً بالكسر يريدون به الفرس حيث رأوه في
مقابلة الاثنان وهي اثني الحمار والصواب ان حساناً بفتح الحاء
وهي المرأة الحصينة المتمنعة من العفاف والتصون قال حسبان
ابن ثابت في السيدة عائشة:

حصان رزان ما تزن برية وتصيح غرثي من لحوم الغوافل
والموضوع ايضا يعين ذلك حيث ان الرسالة في امر مصاهرة
وفي ص 140 قال المؤلف «فانه كان كالبحر لا تكف غواربه»
وهو من وكف فجعله المصححون من كف وضبطوه بالضم والتشديد.
وجاء هذا البيت ايضا في ص 245 :

قالت اذا ماجئنا فائتنا ليلا اذا ما هجع السامر

ولكن سقطت منه ما بعد اذا الثانية وهو كذلك لا يتزن.
وهذا البيت ايضا في ص 262 :

مرض الجفون ولثغة في المنطق سببان جراً عشق من لم يعشق
ضبط المصححون لفظة سيان بكسر السين وتشديد الياء
يعنون تثنية سي بمعنى مثل وقد ابعدوا النجعة فانما هي سبيان
تثنية سبب كما لا يخفى.

وهذا البيت ايضا في ص 277 :

تثابت كي ابغى لدمعي علة وكم مع لوعاتي بغاً التثاؤب

ضبطوا بغاً بكسر الباء وفتح الهمزة وعلقوا على البيت (كذا في الأصول) يعنون انه غير ضوابط والامر على العكس فان البيت ظاهر المعنى لا غبار عليه ولكن اذا قرئ بضم باء وهمزة بغاً وهو الاسم من بغى الشيء يبغيه فالشاعر يقول انه يتثاوب ليخفي سبب بكائه الحقيقي ويظهر ان دموعه انما هي بسبب التثاوب ولكن كم يكفيه من التثاوب لتعمية امره واخفا سره فهو قوله كم مع لوعاتي بغاً اي طلب التثاوب؟.. وهذا البيت الرابع ص 285:

عشنا اليفين في بر الهوى زمنا

حتى رقى بنوانا طائر الشوم
ضبطوا رقي بالراء وبكسر القاف من الرقي وعلقوا على العبارة بالاشارة الى انها كذلك في نسخة باريز وليفي بروفنسال وتيمور وهذا مما يظهر ان المصححين لم يكونوا يعتمدون في التصحيح الا النسخ اما العلم واللغة والعروض والادب فانها كانت منهم دبر الاذان على طريقة المستشرقين ونعني بهم المستشرقين القاصرين لا المتمكنين فان هؤلاء بعد اعتماد النسخ المختلفة يرجعون الى النظر والتحقيق العلمي. وقد عرفت هذا من امر آخر وهو الاشارة الى مقابلة بعض نصوص الكتاب على بعض مطبوعات المستشرق ليغني بروفنسال كاعمال الاعلام والجزء الثالث من ابن عذارى فباستثناء هذين المرجعين من كتب التاريخ والادب الاندلسي لا نجد للمصححين اشارة واحدة الى مقابلة اخرى على كتاب

آخر اللهم الا ان يكون ذلك في بيت لشاعر معروف يقابل
على ديوانه او نحو ذلك من العموميات، كأن العلم مقصور
على هذين الكتابين ومقابلة نسخ الاصل المطبوع عليهما .

وهذا امر يظهر لنا ان اصبع ليفي هو الذي كان يحرك
لجنة التصحيح او قل انه هو الذي وضع خطة العمل واشرف
على توجيهه. وهاك الان صواب اللفظة فانها زقا بالزاي والقاف
بمعنى صاح يقال زقا الطائر او الصدى يزقو قال :

فانك هامة بهراة تزقو فقد ازقيت بالمرويت هاما
ومن امثالهم اقل من الزواقي وهي الديكة لانها تصيح
سحرا فيتفرق السمار والاحباب.

فمعنى زقا بتوانا طائر الشوم صاح بفرقتنا الطائر المشؤوم
من الغراب او البوم ونحوهما.
وهذا البيت الخامس ص 316 :

ارسل حليما واستشر لبيبا
الراجح ان جوابه حكيما على حد قوله :

فارسل حكيما ولا توصه
ويحسن ان تنتهي عند الحكمة من هذه الملاحظات التي
قلنا انها صغيرة ولكنها بالنسبة الى الكبراء كبيرة، وبقيت
هناك ملاحظات اخرى يقتضي امر تحقيقها تعباً، وما لنا نتعب
انفسنا واساؤدتنا الكبار يريحون انفسهم بالمرّة فلا ينظرون
حتى في هذه الجزئيات القريبة؟ ...

ديوان لمحات الأمل للمقدم

يُنظّم الشعر في سبكه العجيب كل الفنون الجميلة تقريباً، وبهذه النظرة انظر اليه دائماً. ولعل غيري من المفتونين به ينظرون اليه كذلك اما الشعراء فلا ريب عندي انهم يقدسونه ويجعلونه فوق الجميع، وذلك سر اعتزالهم، وتبهاثهم في اودية الخيال وبوهميتهم المحبة التي لا يبعثون بها بديلاً. فإنهم قد اكتفوا به عن كل ما يجذب غيرهم الى الاجتماع ومداخلة الناس، اذ يتحدثون اليه حديثاً نفسياً لذواشئ من كل حديث يمكن ان يتحدثوه في المحاضر والمجمعات.

ويسمعون منه موسيقى روحية ذات انغام علوية تجعل موسيقانا نحن الذين لسنا بشعراء في نظرهم اشبه بأنغام الزوج واصوات السنابير.

وهم يشاهدون فيه دائماً متحفاً مكتظاً بالصور البديعة، والتمائيل الجميلة التي لم تخطها ريشة مصور، ولم ينجحها ازميل مثال؛ متحفاً يكاد من بهر آياته الفنية يخاطب شاهده بما فيه، حتى ليستوى في التمتع بعجائب مصنوعات البصير والاعمى والقريب والبعيد. فما لهم اذن لا يجتوون عالم العامة الذين ليسوا بشعراء، وينقطعون الى عالمهم القدسي الذي لا يلتقون فيه الا بكل نفس معذبة قد صقلها السمو الروحي وكيفتها الاذواق الفنية المبدعة؟...

وإذا قال شوقي مخاطباً لهم (اتمم الناس أيها الشعراء) فإنه مصيب وعلى حق في ذلك القول.



لا أزم أن الشعر كله كذلك، فإن الشعر طبقات، منه ما يهز المشاعر ويضرب على أوتار القلوب، ويكون تعبيراً صادقاً عن عواطف النفس التواقفة التي لا تستطيع التعبير. ومنه ما يهيج ويطرب ويكون كالمهالة يلامس شعورك ويداعب وجدانك من غير أن يعنيك بما لا يعنيك. ومنه ثقيل غث يغطي النفوس وتهيض منه القلوب. فلا كان ولا كان ناظموه. ولهذا قال الشاعر:

الشعر صعب وطويل سلمه إذا ارتقى فيه الذي لا يعلمه
ولت به إلى الحضيض قدمه يريد أن يعربه فيعجمه

وما أحسن قول شاعر العراق صدقي الزهاوي:

إذا الشعر لم يهزرك عند سماءه

فليس خليفاً أن يقال له شعر

وقوله:

حبذا الشعر إذا كان جميلاً كالزهور

وإذا كان شجياً كأغاريد الطيور

وقد خفيت هذه الحقيقة على بعض الناس فظنوا كل منظوم شعراً، بل حتى النظم لم يبق له عندهم وزن ولا اعتبار، فصار أعلى الكلام أدناه، والكلام الذي تمثّل فيه الفن بجميع مظاهره هذراً وهراً من القول، والكلام الذي هو أشبه شيء

بالرياض البصرة المحصورة المزدحمة مثل وادي الحخم ليس
فيه الا القدر والعذاب فكيف يرقى الشعر ويحيى الفن بين
هؤلاء القوم؟....



وللشعر في بلاد المغرب عيبان، عيب في المعنى وعيب
في اللفظ.

فأما عيبه المعنوي، فهو ما قصر الشعراء الشيوخ انفسهم
عليه، من مواضيع مستكرهة لم يبق لها مساغ في اذواق الناس
اليوم كالمدح والرتاء، وما الى ذلك، وخاصة اذا كان فيمن
لا يستحق مدحا ولا رثاء وهو الغالب، واين من يستحقهما اليوم
إلا ما ندر؟

وأما عيبه اللفظي، فهو ما يحاول الشعراء الشبان اقتحامه
من مواضيع الشعر الحقيقية، ولكن لفظهم يقصر عن بلوغ ما
يريدون، وكثير منهم يقصر لفظه ومعناه عن ذلك.

وحيث أن هؤلاء هم الذين يهيمونني لان نهضة الادب في
هذه البلاد انما تكون على أيديهم، فإني سأخصهم بكلمة موضوعية.
فأولا انا احب فيهم هذه الروح السامية التي تحلق في
الاجواء ولا ترضى بالارض بدلا من السماء.

وثانيا أود لو تطلعوا من الثقافة اللغوية والثقافة العامة
حتى اذا تناولوا موضوعا ما من المواضيع الشاعرة التي يعلقون

بها، يؤدونه على أتم الوجوه سواء من جهة العمق والاستيعاف
في الفكرة أو من جهة الأسلوب والبيان .

ولا أقول ان كل شعراء الشباب بحاجة الى نصيحتي هذه
حاشا وكلا! فان من بينهم شعراء موهوبين تبشر بداياتهم الطيبة
بنهاياتهم الحسنة بل الحسنى !

ومن هؤلاء الشاعر النابغة السيد عبد القادر المقدم الذي
نقدم ديوانه الاول وبأكورته الادبية الى القاري، هذا الديوان
اول ما لاحظت فيه انه خال من عيوب العروض والقافية التي
قل ما خلا منها شعر ينشر في هذه الناحية الهبطية من نواحي
المغرب، حتى كاد ينشأ بين المتأدبين اعتقاد ان هذه الناحية
عقيم في الذوق الشعري والقريض المختار... وقد عرفت ان
شاعرنا تلقى حب الشعر عن والده الذي له بذلك مساس
وتبرس واستيناس فصول ذوقه الفني وهذب سجيته الشعرية
منذ الصغر، وبذلك نشأ وهو شاعر «موزون»

ثم مما يلفت نظر القاري لهذا الديوان، هذه الروح
الوطنية التي تشيع في انحاءة، وهي تنبئ عن اخلاص عميق
وعاطفة مقدسة ان لم تكن هي الشعر فماذا تكون غيره!
وهاك نموذجا من وطنياته:

يا فتية الشعب يا مناه * من منكم يفتدي حماه!

اصابه الجهل في حشاه * فهو شقي بما عداه!

فهل رضيت بما دهاه؟! * وهل تجلون من رماه؟!!

من بينكم يبتغي دواه * وانتم اتم رجاء!!

وهو منقطع من موشع

وخذ هذين البيتين من قصيدة:

يا ابن المغاربة الاشياوش انما في ميعة التكوين والاحياء
قتصع الماضي فكل صحيفة لك سلم لتسهم العلياء
أما في الناحية الوجدانية الصرف والوصفية فقد اعجبني
منه ابیات كثيرة كقوله:

يهون علي احتمال الردى وليس يهون احتمال الفراق
ليالي الحياة تمر سدى اذا لم تكن في سبيل التلاق
بلوت الليالي الا غدا انا منه في لوعة واحتراق
وقوله:

بضة ناعمة في قدها آية الحسن تجلت للعيون
لو رآها عابد في مشيها تنهادي خر من فرط الشجون
كتب الحسن على اعطافها ها هنا توجد آيات الفنون
وهنا تدرك اسرار الهوى وهما يعرفون النهى مس جنون
وهنا معنى ثسامى شأنه وهما سر دراه العاشقون

وما الطف قوله في قطرات الندى:

قطرات الندى على ورق الزهر ردت كعبرة من جفون
روعة زادت البلبل اشوا قا فغنت بدائع التلحين
وتدانت اشعة الشمس تلقى من حلاها عجائب التلوين
فأذابت بحرها قطرات كن تاجا في مفرق الياسمين

فتعالت انفاسها في سما الروض الى اطل مبدأ التكوين
 وعلى الاجمال فان في الشاعر عبد القادر المقدم روح
 منفرد، وقد تمكن من الطينة المختارة وسيضع منها ابداع الآثار
 وان له في دولة الشعر لمستقبلا زاهرا كما قال هو:
 وآمال بي لها دنيا فكم دوى لها صوت؟
 وقد كدت ان انتقد عليه نظراته الضيقة الى بعض
 الاشياء مما يتنافى مع روح الشاعر التي تسع الكون بما فيه
 ولا تكبر منه شيئا، فاذا بي ارى ان ذلك قاصر على القسم
 الاول من مجموعة شعره الذي قاله في عهد التلمذة، وهو
 طور من اطوار الحياة لا يكلف الانسان فيه بما ليس في
 طوقه، بل ان انتاجا كإنتاج المقدم في هذا الطور يعد من
 الفلق العظيم.



نهضة الشعر بالمغرب



ارادتني الانسة مركادير ان اتحدث الى قراء المعتمد
عن نهضة الشعر في المغرب... والانسة مركادير اديبة
بفطرتها وشاعرة عربية الشعور فلذلك اطلقت على مجلتها
البديعة ذلك الاسم الرمزي وجعلت من اهدافها ربط الصلة بين
ادباء العدوتين والتعريف بشعراء الامتين فانا اذ انزل على
رغبتها فاتحدث الى قرائها عن شعراء المغرب؛ انما اساهم بقسط
ضئيل في مهمة اديبة سامية عجز عن القيام بها رجال كبار
وقامت بها احسن قيام هذه الانسة الرفيعة التهذيب.

وحديث الشعر والشعراء في المغرب حديث طويل يرتبط بتاريخ
ادبي مجيد وبنهضة ادبية عامة في البلاد العربية التي المغرب جزء
من اهم اجزائها... فمن الوجهة التاريخية كان المغرب احد
الاقطار العربية التي قام للشعر والشعراء فيها سوق رائجة
وما لبث صدى الحانهم السحرية يتردد في اذن المشرق حتى
لقد غمر زمان لم يبق فيه من يخدم دولة «ابولو» في العالم
العربي وخصوصا ايام حكم الاثراك الا جنود مخلصون من ابناء
المغرب العزيز... واما ارتباط حديث الشعر في المغرب
بالنهضة العربية الحديثة فذلك لان هذه الموجة التجديدية التي
غمرت العالم العربي في اوائل هذا القرن فنبهت شعوره ونمت

احساسه وجعلته يغير نظركه الى فهم كثير من الاشياء، قد شملت المغرب أيضا وبعثت فيه شعور الاعتدال بالنفس والايمان بالذات فقام ينشد حياة العزة والعظمة ويغني امجاده الطائلة التي ما فتئت جبال الاطلس تشمخ تساميا بها وامواج بحر الزقاق تتراجع هيبة لها.

واذن فالشعر المغربي له اتجاه واحد معين هو حفز الهمم واذكاء المشاعر وتربية الارادة والحث على التضحية من اجل حياة الخلود فالشعراء يعتبرون كقوادٍ مظفرين يقودون جيوشهم من معركة الى معركة حتى يربحوا معركة النصر الاخيرة، والشعر بهذا المعنى بعيد عن فهمه الادبي الاصيل، فما جعل الله الشعر الاربعاء لصدى الابدية في مواكب الحياة وشعورا بالجمال في مجالي الطبيعة الفاتنة واستجابة لوعي الوحدة في الغاب وسخر الانس في حضرة حواء وهيماننا في اودية الجمال وشغفا بتلمح الخالق في وجوه خلقه واستماعا لصوت القدرة القاهرة في قصف الرعد وعصف الريح ولصوتها الخنوف في زقزقة العصفور وخرير الجدول وتوقانا ملازما مدى الحياة الى العوالم غير المنظورة حيث تسعد نفس الشاعر وتتوالى فتوحات قلبه .. ولذلك فأنا اعتبر هذه الظاهرة التي تسيطر على الشعر المغربي اليوم، موقفة لا بدات تزول او تضعف أمام النبع الفياض التي يتفجر من قلوب الشعراء

المقاربة الوجدانيين يوم يدرك الشعب بعينه ويحقق أمشيته من
نهضته السياسية والاجتماعية الراهنة.

ومثل هذه الحال جرى في الشرق العربي بالضبط فان
طلّاع شعراء النهضة انما كانوا يتغنون بمجد الاسلاف وبالحياة
السياسية العزيزة التي كانوا يؤملونها لشعوبهم فلما ادركوا
من ذلك ما املوا فاضت يتابع الشعارية العاطفية من صدورهم
وفتحت لهم ابواب من القول لم يكن لاسلافهم من شعراء
العرب مجال فيها بسبب هذا الاتصال الذي وقع بين الشرق
والغرب وامتزاج الثقافات وتلقيح الافكار وهكذا تسير القافلة
نحو الهدف المنشود.

على ان هذا لا يعني ان خواطر الشعراء كلها وقف
على الشعر السياسي فان ثم نفحات عطرية يعبق بها جو بعض
الشعراء هنا وهناك. ومنها هذه التي تتحفنا بها مجلة المعتمد
اونة بعد اخرى وهي خاصة بشعراء المنطقة الحليقية فاذا ولينا
وجهتنا الى المنطقة السلطانية نجد امكانيات اكثر واستعدادات
اكبر مما عندنا فاذا توسعنا ونظرنا في اطراف هذا المغرب
العربي كله نجد ان هناك شاعرا موهوبا حقاً سبق زمنه
بكثير لا بالنسبة الى المغرب فقط بل بالنسبة الى العالم العربي
اجمع وهذا هو أبو القاسم الشابي الشاعر التونسي الذي توفي
في عنفوان الشباب ومع ذلك فقد جاء منه شاعر عاطفي

ممتاز راد أودية الخيال واسمع الأرواح الهامدة أنشودة
البعث والنشور.

واني اقترح على المجلة ان تقدم لقرائها في القشالية
الجميلة في هذا العدد الخاص بعض أشعاره كما تقدم غيره
من شعراء العرب فان من الحيف ان تقابل شعراء اسبانيا
بشعراء جزء صغير من العالم العربي هو المنطقة الخليفة
من المغرب.



حرفة الادب



الحرفة بضم الحاء الخمران وسوء الحظ. وقد اشتهر ان
الادب والفضل والعلم واوصاف الكمال هذه، قرينة الحرفة وان
اصحابها محرومون مقتر عليهم في الرزق عرصة للافات والمصائب
حتى صار الناس لا يستغربون فقر الاديب واعتماد الدهر اياه
بالنكبات، ويعلمون ما يصيبه من نائبات الحياة، دون ما يصيب
غيره من الناس، بافتسابه الى الادب واتتحاله لاسبابه كأن من
كان عاطلا عن هذه الحلية لا يصيبه شيء من ذلك مدى الحياة
ولا بد ان يكون راتعا في بجبوحة العيش الرغد الرخي.
وقال قوم ان هذه الحرفة قد تسامت الى مقام الخليفة ابن
الخلايف اعني به عبد الله بن المعتز لتعلقة بالعلم والادب
ونبوغه في الشعر والبديع حتى مات مقتولا كما هو معلوم
وقال فيه علي بن محمد بن بسام :

لله درك من ميت بمضيعة

ناهيك في العلم والآداب والحسب

ما فيه كو ولا ليت فينقصه

وانما ادركته حرفة الادب

لو بتشديد الواو وضما مع التنوين وليت بالضم والتنوين

أيضا أي أنه كامل المعاني والأدوات ليس فيه نقص فيقال عليه
لو كان كذا أو ليته كان كذا وقوله وإنما أدركته حرفة
الأدب بالضم أي شؤمه وتعبه ولذلك قتل وعلل بعضهم ما
يكون فيه أهل العلم والأدب من خصاصة وأملاق بأن قاسم
الأخلاق والأرزاق سبحانه وتعالى لما أعطى هذه الطبقة من
الناس العلم والفضل والأدب والحكمة؛ حرما المال والغنى
وأعطاهما الجاهل تحقيقا للعدل وتسوية بين خلقه في القسمة
ليلا يختص فريقا بالمال وأفضل من المال وهو العلم ويحرم
فريقا من النعمتين معا. وهكذا وقر في ذهن هؤلاء أن العلم
والمال لا يجتمعان وأن الجد والفهم ضدان كما قال أبو الطيب:

وما الجمع بين الماء والنار في يدي

بأصعب من أن أجمع الجد والفهما

وقال الآخر:

تبا لرزق الكتبه تبا له ما أصعبه

يلتمسوت رزقهم من شق تلك القصبة

ويعجني قول بعض المشايخ في هذا المعنى مضمنا شطر

بيت من الفية ابن مالك:

العلماء كلهم من سادا أو لم يسد لم يبلغ المرادا

فرزقهم مرخم منادى (كياسعا فيمن دعا سعادا)

إلى غير هذا من الأقوال التي لو أردنا تقصيصها هنا لطال

بهذا الكلام. وانما يهمني الآن ان اكرر على هذه المزايم بالنقص
 والابطال فما كان لها ان تحتل عقول الجيل الطالع من طلبه
 العلم وعشاق الادب وهي حديث خرافة ليس لها نصيب من
 الصحة وانما اولع بها الناس لتعليل الحوادث وتفسيرها بالحق
 والباطل كما اولعوا بنسبة الكوارث الى الدهر ولومه على ذلك
 ووصفه بالخبث والتمقلب وما الى ذلك مع انه بريء من
 جميع ما نسب اليه براءة الذيب من دم يوسف عليه السلام
 والا فكيف نقول في هذا النبي الذي قال (اجعلني على خزائن
 الارض اني حفيظ عليم) وقال الله تعالى فيه (وكذلك مكنا
 ليوسف في الارض ولنعلمه من تاويل الاحاديث) فلو كان
 العلم يتنافى مع المال والدين لا يجمع الدنيا لما آفاهما الله هذا
 العبد الصالح وقال سبحانه وتعالى في حق داود عليه السلام
 (واتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء) وبين شمويل النبي
 لبني اسرائيل ان المال ليس هو سبب الرياسة والتقدم حين
 قالوا في طالوت (انى يكون له الملك علينا ونحن احق بالملك
 منه ولم يوت سعة من المال)؟ قال: (ان الله اصطفاه عليكم
 وزاده بطة في العلم والجسم والله يوتي ملكه من يشاء)
 وهل بعد الملك عز ورفعة شأن، فينالهما الانسان بالعلم والعرفان؟
 ونحن قبل ان ننظر الى الادباء والعلماء المحرومين، ننظر
 الى الجاهل والضعاليك الذين احاط بهم البؤس من كل جانب
 وكتب عليهم الشقاء ضربة لازب فنجد انهم يفوقون عدد

الادباء الفقراء بعشرة اضعاف بل بما لا حد له من التضعيف. وانما ذكرنا هذه العشرة على عادة العرب في ذكر السبعين والمائة مثلاً وهم يريدون الكثرة والتعداد ولا يقصدون ذلك العدد بنفسه. وما جعل الناس ينتهون الى الاديب المحروم ولا ينتهون الى غيره الا لما له من مقام مرموق وقدر مرفوع فهم يتقصون احواله ويعرفون ما زاد فيه وما نقص بخلاف غيره من عامة الناس وصعاليكهم فانهم وان كان الحرمان شعارهم والفقر دثارهم فانهم كالحيوان الأعجم لا يؤبه لهم ولا يهتم احد بشأنهم... وذلك نظير الكلمة النابغة تصدر عن مطلق الناس لا يلقي لها احد بالا فاذا صدرت كلمة اقل منها شأننا من رئيس كبير او ملك عظيم تلقفها الناس وتناقلها الرواة ونعتوها بالنعوت الفائقة وسجلت في دواوين التاريخ كأنها وحى من السماء، فعلى هذا النحو يهتم الناس بفقر العالم وبؤسه وشقائه دون غيره من طبقات الناس ويذهبون في تحليل ذلك المذاهب المختلفة منها الصحيح ومنها الباطل كقولهم ان السبب في خصائصه هو فضله ونبله ليس الا.

وأما كون ابن المعتز انما اصابه ما اصابه بسبب ادبه وفضله وتميزه بهذه الحلية على غيره من الخلفاء وان ذلك دليل على شؤم الاديب ونحس طالعه فيقال عليه ولم اصاب القتل والتعذيب غيره من الخلفاء أو الملوك والامراء الذين ليسوا بادباءً وهم اكثر عدداً؟ بل لم نجأ غيره من الخلفاء

والملوك الذين كانوا ينتسبون الى العلم والادب والفضل مما اصابه هو كالرشيد والمأمون وبميم بن المعتز الفاطمي واحمد المنصور الذهبي وغيرهم. أليس الصواب أن الأمر قضاءً وقد يجري على الأديب وغيره والكل من عند الله؟ وكما أنه لا علاقة بين الأدب والحرفة كذلك لا منافاة بينه وبين الغنى والمال والثروة.

فكم أديب صار كالنطف غنى وكان أفقر من المذلوق! والأدباء الذين كانوا يرتعون في بحبوحة النعيم قديما لا يكادون يحصون وناهيك أنه غير دهر على الدول العربية كان لا يتولى الوزارة فيها إلا أديب ممتاز وهذا الطاحب بن عباد في الشرق وابت زيدون في الغرب وخلافهما كثير من الأدباء الذين اثروا وتأثلوا المال والعقار بسبب الأدب. وفي العصر الحاضر يكفي أن نذكر شوقي وهيكمل وطه حسين لنعرف أن الأدب هو سبب الثروة والغنى لا سبب الفقر والحرمان وهذا في الشرق وعندنا معاشر العرب، أما إذا نظرنا إلى الأدب عند الغربيين فإنا نجد الأدباء أغنى من الملاك والتجار الكبار بسبب رواج الأدب وانتشاره كثيرا بين الجمهور فتجد الشاعر أو الكاتب يكسب من ديوان له أو كتاب مبالغ طائلة في كل طبعة تخرج من كتابه فما بالك إذا كان له كتب عديدة وطبعت مرارا كثيرة؟ لا جرم أنه يكون يتلاعب بالأموال كيف شاء وينفق بغير حساب.

ومن ثم نعلم أن الله سبحانه لم يخص قوما بالمال وقوما بالعلم تسوية بين خلقه في القسمة وإنما اعطى كما أراد المال والعلم قوما وحرم آخرين منهما معا واعطى فريقا العلم دون المال وفريقا آخر المال دون العلم لحكمة يعلمها هو سبحانه وتعالى. وإذا كان هذا حكم المال فكذلك الجسد بفتح الجيم اعني الحظ والسعد والنصيب ليس مصروفا عن ذوي الفهم كما زعم المتنبي فكم من بليد محروم وفهيم محظوظ. والامر في ذلك اعتباري محض فان الناس لا يستغربون نجاح الحاذق الفهم وفوزه ولكنهم يستغربون كثيرا ما يصيب الغبي القدم من نجاح قليل في بعض المرات فيستعظمون ذلك عليه ويكبرون امره ويذهبون الى القول بان الجد قرين البلادة والسعد نصيب الاغنيا وهو كلام ملقي على عواهنه ويعوزه كثير من التحقيق. والخلاصة انه لا الادب ولا العلم يحرمان صاحبهما من الحظوظ الدنيوية وانه لا الجهل ولا الغباوة يكونان سببا في اسعاد المتظف بهما بل الامر في الغالب على العكس وهو ان اكثر العلماء وامتاديين هم من الاغنيا والمستورين بخلاف اكثرية الجهال والاغنيا فانها هي التي تكون الطبقة الفقيرة في الامم كلها، ويظهر لنا ان الامر كله يرجع الى الجسد بكسر الجيم والاجتهاد والنشاط والعمل فمن كان على جانب من ذلك اثري واستغنى وحصل على نصيب من الدنيا سواء كان من العلماء او من غيرهم ومن كسل وعجز افتقر

وحرّم فلا يلومون إلا أنفسهم ولا يتهم علما ولا أدبا.
وما أصدق قول الشاعر في المعنى:

الم قران العجز زوج بنته من ابن التواني حيث ساق لها مهرا
فراشا وطيثا ثم قال لها اتكي قصارا كما لا شك ان تلدا فقرا

نعم لزيادة تقرير نظران العلم والادب يكونان سببا
في الغنى ولا يكونان سببا في الفقر يمكن ان نعلل ما
فراه من حرمان بعض العلماء والادباء بانهم لانصرافهم بكنيتهم
وقلبهم وقالبهم الى ما هم بصدده من العلم والادب لم يبق لهم
وقت للاشتغال بجمع المال وتدبيره فلذلك يلزمهم الفقر والاحتياج،
والذي كان له من الجد والنشاط ما يقدر معه على طلب
الدنيا وعدم التفريط في العلم يحصل على النتيجة ويفوز
بالحسينين معا والله الموفق.



ما هو احسن كتاب قرأته في موضوعه ؟..

وجه الي الاديب التونسي السيد مصطفى بن حميدة هذا
السؤال فاجبته بما يلي:

لا يمكن الجواب باطلاق عن هذا السؤال، وخصوصا لمن
كان مثلي على كثرة ما قرأ من الكتب في الموضوع الواحد،
لا تزال امامه لائحة طويلة بالكتب التي لم يقرأها في كل
موضوع. فانا اذا تمنيت ان اعيش طويلا، فانما اتمنى ذلك
لاجل ان استوعب ما اريد من الكتب واذا كان ثابت
البناني قال: «اللهم ان كنت اعطيت احدا من خلقك الصلاة
في قبره، فأعطنيها» وقيل انه كشف عن قبره فوجد قائما
يضيء - فانا ادعو الله القادر الذي لا يعجزه شيء، ان يمتعني
في الحياة الاخرى بغرفة مطالعة، تجبى اليها ثمرات العقول:
من كتب ومجلات، وصحف ادبية، ودواوين شعرية قديمة
وحديثة؛ حتي اكون على اتصال تام بالحياة الفكرية في الدار
الدنيا قبل فنائها، وامتع نفسي في الجنة بعد فنا هذه الدار
باعظم لذة روحية في نظري. واللذة الوحيدة في نظر الرازي
كما قال في جمع الجوامع: «وحضرها الامام والشيخ الامام
في المعارف»..

ومن هنا اعتبر اني لم احظ بأي موضوع، فلا اعرف احسن كتاب فيه.

ومن وجه آخر فانه اذا كانت اكثرية الكتب مكررة لبعضها، فان كتباً كثيرة لا يمكن ان ينسحب عليها هذا الحكم؛ لانها تتمم البعض الآخر ولا تكرر. وهل يمكن للاديب ان يستغني بالعقد (ولا أقول القريد فان مؤلفه لم يسمه بذلك) عن (عيون الاخيار)، او بهذين معا عن (الاغاني) ؟ ..

لذلك فان تعيين كتاب واحد، في موضوع واحد والقول بانه احسن ما قرأت، يكون فيه تسامح كبير، وان شئت فقل ظلم كبير! ..

غير اني استثني من ذلك، الكتاب الازلي الخالد؛ كتاب الله الذي لا ياتيهِ الباطل من بين يديه ولا من خلفه. فهذا الذي اقول فيه بدون تحفظ انه احسن كتاب قرأته بل حفظته ولم ازل اقرأه منذ الصبا حتى لا احصي كم مرة ختمته. ودائماً اجد فيه شفاءً للنفس، وغذاءً للفكر، وشرحاً للخاطر، ونوراً للبصيرة. لا ادري هل ذلك لاني مسلم، وايمانني بالقرآن ايمان عميق، وهو اول كتاب قرأته على الاطلاق، واقتربت مدة حفظي له بذكريات جميلة وبريئة اعد منها ولا اعدّها؛ ام لما اجد فيه من معارف واسرار، يتمثل فيها كل ما قرأته من ابحاث فلسفية وادبية وخرقية وطبية وغيرها في اسلوب يخلب القلب، ويستهوِي القلب ؟ ..

على كل حال، الغاية التي من أجلها يقرأ الإنسان، وهي
لذة العقل، وتكميل النفس، هي ما أجد في القرآن دائماً وابتداءً
ولذلك أقول: إنه أحسن كتاب قرأته وقرأه على الإطلاق
وثاني كتاب، يحتفظ بمكانة مكيئة في نفسي وهو
الوحيد من الكتب المؤلفة الذي أكون قرأته مرارا متعددة،
كتاب (صحيح البخاري)، فهو كتاب دين وشريعة وأدب
وأخلاق وحكمة وسير ورفائق وأخبار معاد. ويرجع بغض
أعجابي به لصنيع مؤلفه؛ ولذلك فهذا القدر لا يدركه إلا من
درس حظا من علوم الحديث ودرس غير (صحيح البخاري) من
كتب السنة، والبعض الآخر لما في كلام النبوة من الحلاوة
والقبول وسداجة الاخلاص وروح الطمأنينة وغير ذلك كما
قال القائل:

وما سمعت أذن كلاما ونغمة ألد وأشهى من حديث محمد
وإنني لأعرف أبوابا فيه كلما قرأتها أبكي؛ وأخرى
تضحكني، وأخرى تهدي أعصابي. ولو كانت في أشد الاضطراب
وأخرى تبعثني على الرجاء، ولو كنت في أشد حالات القنوط
وأخرى! وأخرى! ومن غير هذا فليس ثم كتب أقول إنني
قرأتها مرتين أو ثلاثا، اللهم إلا كتب الدراسة، وما يكون في
نيتي أن أعيد قراءته حينما تمكنني الفرصة. ومن هذه الكتب
(سر تقدم الانجليز) السكسونيين ترجمة أحمد فتحي زغلول،
فإن هذا الكتاب بصرفي بكثير من الحقائق في تقدير الحضارة

العصرية سقاديها الحقيقية، وصرت اعرف قيم الثقافات المعاصرة، وما تؤثره في النفس والسلوك. واني وان قرأت بعده ابحاثا اخرى في موضوعه الا اني لا ازال اراه مجليا في هذا الباب.

وكتاب آخر، دائما اجعله على مقربة مني لاتيكن من مراجعته هو: (صيد الخاطر) لابن الجوزي، فهذا الكتاب مجموعة آراء مرسلة في العلم والتربية والدين والاجتماع؛ ولكنه كتاب مؤثر جدا، ومعين على تكميل النفس وقربية الارادة، وتكوين مبدأ سام لقارئه. وقد قرأته قبل مدة قريبة وكان ما يصادفني فيه من الانظار كأنه يعبر عما يجول بنفسي منذ سنين عديدة وإن انس لا انس فضل مؤلفات الشيخ الامام محمد عبده والاستاذ الكبير محمد فريد وجدي، والسيد محمد رشيد رضا والشيخ مصطفى الغلايني، ورفيق بك العظم، والعلامة محمد كرد علي، التي بها امكنني ان اعرف قيمة الثقافة الاسلامية والحضارة العربية، واقارنهما بغيرهما من الثقافات والحضارات، واكون لنفسي بعض الافكار عما قرأته على الطريقة القديمة: من كتب التشريع الاسلامي وكتب الكلام والتصوف.

اما في الادب الحديث، والنقد والقصة، فمن احسن ما قرأته واستفدت منه كثيرا كتب العقاد والرافعي وطه حسين ولطفي جمعة وهيكل والمازني وزكي مبارك ومجلة الهلال

والنقطف والرسالة... ولا اخص شيئا من كتب هؤلاء فانها
كلها جميلة ومفيدة.

بقيت المباحث السياسية، وتاريخ الامم الاسلامية ونهضاتها
ومما اقدمه على غيره في هذا الباب، كتابات جمال الدين
الاقعاني، والكواكبي، ومصطفى كامل، والامير شكيب
ارسلان، ومحب الدين الخطيب، وصديقنا احمد توفيق المدني
ولا اختتم الكلام بدون اب اشيد بأثار فقيد الشمال
الافريقي العلامة المجاهد. المرحوم الشيخ عبد الحميد بن
جاديس التي كان لها كثير من الاثر في توجيهي واثارة
الطريق امامي الى كثير من الخير.



هل الثقافة في أزمة ؟

اقرأ في هذه الفترة الكاتب الفرنسي جورج دو هاميل في كتابه (دفاع عن الادب) الذي اخرجته لجنة التأليف والترجمة والنشر في حلة عربية قشبية ، وهو يرى ان الكتاب في أزمة واذا يقول الكتاب يعني الثقافة ، لان الكتاب هو وسيلتها العظمى ، واذا كانت الثقافة وادائها الكتاب في أزمة فالحضارة مهددة بالاضمحلال .

ولتصوير هذا الخطر وتقريبه للذهن يفترض دو هاميل ان الورق الذي هو المادة الاولى للكتاب اصيب بأفة او مرض على حد تعبيره هو فاعدمت الكتب ونفدت من ايدي الناس الا يكون ذلك مدعاة للتقهقر والخمول والرجوع بالانسانية المهذبة في حافة الجاهلية ؟ ...

نعم ! هذا هو مستقبل الكتاب . وقد أصبح مهددا بطغيان السينما والراديو والجزائد والمجلات عليه وصارت هذه المستحدثات العصرية تنافسه وتصرف وجوه الناس اليها وتحصل على المكانة التي كانت له في نفوس القوم فالكتاب الذي هو الجليس في الوحدة والانيس في الخلوة والذي يقول الشاعر في مجموعاته المختلفة :

لئلا جلساء لا يمل حديثهم الباء مأمونون غيبا ومشهدا
يقيدوننا من علمهم علم من مضى وفهما وتاديباً ورأياً مسددا

هذا الكتاب قد استبدت السينما بالساعتين اللتين كان
الانسان يقضيهما في الاستفادة منه والانتطاع اليه، وحينما
ياتي هذا الانسان من دار السينما متعبا مجهودا تقدم اليه آلة
الراديو تسلية جديدة من موسيقى واخبار واحاديث عابرة لا
تفيد علما ولا تكسب تهذيبا والجريدة في الصباح تغزو صاحبنا
قبل نهوضه من النوم، فلا تترك له مجالا لاحتضان الكتاب
والتفكير فيما يحويه من خطأ او صواب، اما المجلة فالاسبوعية
منها كالجريدة وذلك في كونها تزجيه للوقت وكما مهملا لا
ياخذ طريقه الى المكتبة بل الى الافران، الا اذا كانت هذه
المجلة موجهة توجيها ادبيا او علميا - وذلك قليل - فانها تبقى
واسطة بين الجريدة والكتاب ويمكن ان نحفظ بها في رفوف
مكتابنا ونرجع اليها في الحين بعد الحين.

اذا فإلى اين تسير الانسانية وهذه افكارها تتحجر من
عدم الاستعمال؟ وكيف يكون مستقبل الحضارة وقد قنع الانسان
بهذه التغذية العقلية التافهة؟...

أحاديث الراديو مشاهدات السينما، مقالات الجرائد
السطحية التي تقرأ في الميترو، وفترات الانتظار. والجلوس
على مقاعد القهوات أثنا صخب الجمهور ولعب الحضور، هذه هي

وسائل الثقيف التي يستبدل بها انسان ما بعد الحرب الذرية
الكتاب فالى ايه هوة تقوده من الجهل والعبي وتبلد الذهن
وكثافة الاحساس؟ وبالتالي الا يكون مصير هذه الحضارة التي
ينعم بها الانسان اليوم الى الفناء والعدم فيما لو استمر اعراضه
عن الكتاب كما لو اصابته المكتبة العالمية افة قضت عليها
قبل ان تتمكن من انقاذها ! ...

وعرض دوهاميل للمشكلة هو من القوة بحيث لا يمكن
لقارئه ان يمر بها مر الكرام ولا يفكر التفكير الجدي فيما
تطلبه من حلول ، وتقتضيه من تدابير ، وهو يورد اثنا ذلك
بعض الشواهد على صحة ما يقول من حالة الادب والكتابة
واقبال الناس على القراءة في فرنسا فيقول ان الكساد قد عم
سوق الكتب ودور النشر تتعرض للخسائر الدائمة والتصدير لهذه
البضاعة قد قل بل انعدم مطلقا ، فصار الاستهلاك لها قاصرا على
البلاد الفرنسية وحدها .

ويتخذ دليلا على هذا الكساد وضعف الاقبال على الكتب
هذه الاعلاذات الكثيرة التي يلجأ اليها الناشرون ويتنوقون
في صفاتها لاسترعاء نظر القاري الى الكتاب وهذا التوزيع
المسرف للكتب على باعة الدخان والنبيد ومحطات القطار
وغيرها لعرضه على الانظار وتسهيل اقتنائه لكل احد وهذا
المظهر ربما يفهم منه الانسان العادي ان الكتاب قد اكتسح
جميع الميادين وراج حتى خرج من محله المعتاد وهو المكتبة

الى كل محل والامر على العكس، اذ كساد الكتاب هو الذى
يجعل الناشر يضعه بين ايدي الناس في كل مكان، عليهم يلتفتون
اليه ويقتنون منه نسخة في هذا المكان او ذاك.

ويدعم هذا النظر بما يتخذه بعض الكتبيين (في فرنسا
طبعاً) من وسائل لترغيب الناس في شراء الكتب كأن يقدموا
للمشتري هدية او هدايا بقدر ما اشترى من الكتب وعادة
تكون هذه الهدية شيئاً اخر غير مكتوب اي شيئاً مادياً لا
روحياً من جنس الكتاب وذلك كصابون الحلاقة ومعجون
الاسنان ونحو ذلك وبعضهم يقدم للزبائن شاياً ومشروبات
روحية، وهذا كثير في فرنسا فلذلك ترى الكاتب يستنكره
ويستدل بكل ذلك على الكساد والافلاس واغرب من هذا كله ما
يلجأ اليه بعض الكتبيين من وسيلة اهداء الكتاب من المؤلف
للمشتري ليحمليه بذلك على الشراء، وذلك انهم يلتزمون
للمشتري حالة دفعه للثمن بعبارة الاهداء مخطوطة من المؤلف
فاذا كان امضاً ممثلة من فتيات هوليوود يساوي المئات وربما
الآلاف من الدولارات فهل يكون دو هاميل على حق في
اشفاقه من اختفاء الكتاب وقد صار المؤلف الى هذا الحد من
البوار؟

اما أن هذا مؤسف، ولكننا لا نتشائم لمستقبل الكتاب
الى هذا الحد، والزاديو وان يكن صندوق الضوضاء كما
يسميه دو هاميل، فانه يؤدي للانسانية خدمات جلى في المكان

الذي لا يقدر الكتاب ان يعمل شيئاً حذ مثالا الاميين، بل حذ الشيوخ والعجزة الذين ضعفت اعصابهم وقوة ابصارهم عن القراءة، فهو لا ليس لهم ملجأ للتسلية والتثقيف الا الراديو، والمؤلف نفسه يحكي حكاية طريقة عن عجوز لم تعد تستطيع ان تقرأ بسبب ضعف بصرها، وكانت سيدة مثقفة، فكانت تقطع ساعات فراغها في وجوم وانقباض حتى اهدى لها احد قرابتها آلة راديو فعكفت عليها، وانشرت نفسها، وكانت وهي تنصت الى الاحاديث المتنوعة تعلق عليها، وتأمر القاري بقولها قف حتى اناأمل، او اعد ما قلت، كانها تنصت الى قاري بجانبها، ولكن انى لها ذلك والراديو لا يسمع ولا يتأنى؟.... وهذا هو عيبه في نظر دوهاميل الذي يناصر القراءة المتأنية التي تدعو الى التفكير ومناقشة الاراء والاخذ والرد.

على كل حال فانه على ما اخدت السينما، واخذ الراديو واخذت الجرائد من الرواد والمنصتين والقراء فان الكتاب سيبقى له اهله ومحبه وانصاره المخلصون، وهم الان موجودون بالفعل، لا تستهويهم هذه المستحدثات، ولا تأخذ من وقتهم الا ما فضل عن قرائتهم، وفي ظني ان اكثريه اولئك الذين يقبلون على هذه المخترعات هم من كانوا بطالين، بمعنى انهم لا يهتمون بالقراءة والكتاب والثقافة العميقة، وانما دأبهم غشيان الجامعات العامة والاندية والمشارب، فلما استحدثت دور السينما عوضوها مما كانوا يرتادونه، فلم يكن فيهم من يعتد بانصرافه عن الكتاب.

وشرّج الى ما لاحظته المؤلف من كساد سوق الكتب في فرنسا وقلة التصدير، فلعله راجع الى ظروف الحرب، وروح الشك وضعف الايمان بالقيم الاخلاقية التي انبثت بسببها في مختلف الاوساط، ولعله راجع الى ضروب الحصار التي كانت تقيمها الدول النازية والفاشيستية ضد كل الافكار المعادية والمبادئ المخالفة لمناهجها وطرق حكمها، فضلا عن صعوبة التبادل الثقافي بسبب نظام حصر العملة الذي يقضي به الاقتصاد المسير، او لعله راجع الى ضعف قيمة الانتاج الفرنسي من الناحية الادبية بسبب الانحلال الاجتماعي الذي تتخبط فيه العائلة الفرنسية او لعله ناشئ عن السمعة السيئة التي صارت لفرنسا في الخارج بسبب سياستها العدوانية في المستعمرات وغيرها، وقد يكون راجعا الى هذه العلل كلها، فما ندري ايها اولى واقوى في التأثير من غيره !

بقي ان نقول كلمة موجزة في المقارنة بين ما يحكيه المؤلف من وسائل الترغيب التي يتخذها باعة الكتب في فرنسا وبين النوم المطبق الذي يخيم على باعة الكتب عندنا مع ترك اعتبار الفارق بين الاستهلاك عندهم وعندنا، ولكن مع هذا فان اقبال القاري العربي على الكتاب الجديد القيم يكاد يكون تاما بحيث لا يرى محلا للتشاؤم وللتساؤل هل الكتاب العربي وبالبحري الثقافة العربية في أزمة ؟

تصويبات

وقعت اغلاط مطبعية قليلة في الكتاب رأينا ان ننبه على
المهم منها ونذع غيره لفطنة القاري اللبيب:

صفحة	خطأ	صواب
3	مائة	مائة
4	الادب	للادب
14	في كتاباته	في بعض كتاباته
34	وتزوج	وتزوجها
48	يركر	بعكر
»	عبد الحكيم	عبد الحكيم
66	الاسلامية	اللامية
84	صافية	صافيه
88	نفسه	نفسى
96	فطامني	فطمانني
105	اثر	اثار
160	ينشره	ينشره
163	وحدد	وحدد
164	تصانعت	تصحفت
175	الجمال	الحبال

فهرست

صفحة

3	واجهة الفكر
6	المسلمون والنبي
12	تاريخ حياة معدة
16	قنون من القول يسبق اليها اهل الاندلس
28	جند صهيون
32	درهم بدينارين
35	السيد البختار
39	ذكرى الفجرة
43	في عبد الكتاب
55	الثنائي في رأي طه حسين
70	كتاب التصوف الاسلامي
77	القلب المتشحر
92	سرقة فنية
97	الصورة المعلقة
100	تحقيق مع صاحب الذيل والتعليق
133	ان كنت رجلاً فقد لأثبت اعصاراً
161	كتاب الدخيرة
168	ديوان لمعات الامل
174	نهضة الشعر بالغرب ..
178	حرفة الادب
185	ما هو احسن كتاب قرأته في موضوعه ؟
190	هل الثقافة في ازمة ؟

